وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣١)

شرح الكلمات:

سفه– سفه نصيبَه: نسيه. سفِه نفسَه: حملها على السفه؛ أهلكها؛ جهلها (اللسان). وورد في الحديث: البغي من سفه الحق.. أي من جهله (مسند ابن حنبل ج١،ص٤٢٧).

اصطفيناه –اصطفاه: اختاره؛ أخَذه صِفْوة (المنجد).فمعنى اصطفيتُه: قرَّبته إليَّ بسبب أعماله الحسنة.

الصالحين –**الصالح**: الذي فيه صلاحية. هناك فرق بين الأعمال الحسنة والأعمال الصالحة، الأعمال الصالحة هي المناسبة للحال، مثلا الصلاة عمل حسن، ولكنها لا تكون عملا صالحا إذا كان الحال يتطلب ضرب العدو. وإنما العمل الصالح عندئذ هو الاشتغال بدفع العدو. فالصالح الخير المناسب للظروف. إن السيئة أحيانا تكون مناسبة للظروف ولكنها ليست حسنة، لذلك لا يقال لها عمل صالح. فالصالح يتطلب شرطين: أن يكون خيرا، وأن يكون مناسبا للحال.

التفسير: بهذه الآية ذكر الله مثال إبراهيم بدلا من مثال محمد. لأن الكلام موجه إلى قوم فيهم اليهود والنصارى أيضا، وما كان مثال محمد ليأتي بالنتيجة المرجوة لأنهم ما كانوا يؤمنون به، ولكن مثال إبراهيم يكون عليهم حُجة، لأن العرب واليهود والنصارى والصابئين كلهم يؤمنون بإبراهيم. فكان من الضروري أن يكون المثال لشخص تحترمه الفرق كلها على السواء. .وكان إبراهيم أنسب مثال، لأنه كان ذا مكانة كبيرة ليس عند العرب وحدهم وإنما عند اليهود والنصارى والصابئين أيضا.

يقول الله مخاطبا العرب واليهود والصابئين أن الحري بكم أن تختاروا طريق إبراهيم، وتؤمنوا بمن أرسله الله حَكَمًا، وتَدَعوا التعصب والتحيز والنعرة القومية مثلما ترك إبراهيم لله تعالى كل ما له، وعندئذ يتيسر لكم التقرب من الله تعالى.

ومن محاسن اللغة العربية أن تغيير حرف الجر مع الفعل يأتي بالمعنى المضاد له. فعبارة (يرغب إلى) تعني يحب ويشتاق، (ويرغب عن) تعني ينفر ويبتعد ويُعرض. والحق أننا لو تدبرنا بعمق وجدنا أن العواطف المغايرة تنبع من منبع واحد، وشكله المغاير إنما يدل على اختلاف في الكيفية والأسلوب وليس على اختلاف في الحقيقة. إن الرغبة والكراهة في الحقيقة عاطفتان من نوع واحد، والاختلاف هنا فقط في كيفية ظهور العاطفة. ولنأخذ الرغبة مثلا، فعندما يرغب الإنسان في شيء يتجه إليه ويقترب منه، وفي نفس الوقت يبتعد عن غيره.. وهذه هي الكراهية. كأن منبع الرغبة هو الحب، ومنبع الإعراض أيضا الحب. كذلك الشجاعة والجبن فدافعهما حماية النفس، فعندما يهاجم الإنسان شيئا يكون الدافع حماية نفسه، وعندما يفر من العدو فأيضا لحماية نفسه منه، ولكن الأسلوب في كلا العملين مختلف. فباستخدام (عن) و(إلى) أشار إلى أن كثيرا من العواطف تصدر من منبع واحد والاختلاف فقط في كيفية التعبير عن هذه العاطفة.

من معاني سَفِهَ: نَسِيَ، فمعنى قوله تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) أنه لا يُعرض عن دين إبراهيم إلا من أغمض عينه كلية عن مصالح نفسه. والحق أن ترك الإنسان سنة الأنبياء لا يضر الأنبياء شيئا وإنما يضره هو. يمكن أن ينتفع الإنسان بالابتعاد عن مِلك ظالم، ولكن الذي يترك ملكا عادلا لا يضر الملك وإنما يضر نفسه، لأنه حرمها من عدل الملك وخيره. كذلك الإنسان الذي لا يتبع الأنبياء ولا يتأسى بأسوتهم فإنما يضر نفسه، لأنه يُحرَم من تلك المنافع التي تُنال باتباعهم. لقد ذكر الله من قبل النموذج الذي قدمه إبراهيم حيث نجح في الابتلاءات والاختبارات، ولبّى كل دعوة من الله تعالى، حتى إذا قيل له: اصحب ابنك وزوجتك واتركهما في برية ليس فيها قطرة ماء ولا حبة غذاء.. قام بلا أدنى تردد أو شكوى، وقطع مسافة مئات الأميال، وترك أهله وابنه في واد غير ذي زرع، ورجع بنفسه. وبعد عرض هذا النموذج الإبراهيمي العظيم الشأن يقول الله تعالى: كل من يعرض عن هذه السنة الإبراهيمية ولا يقوم بالتضحيات التي يطالَب بها في سبيل الله.. ويظن أنه أحسن إلى نفسه، وأنقذ ماله من التلف، وصان أولاده

من الهلاك، وجنَّب أحاسيسه وعواطفه من المعاناة؛ ولكن الحق أنه قد نسي مصالح نفسه.

ومن معاني (سفه نفسه) حمَلها على السَّفه، فمعنى قول الله تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه)..أن دعاء إبراهيم عن بعث نبي عظيم يتضمن كنوز رحمة عظيمة للعالم، فمن لا يكترث بهذا الدعاء ولا يؤمن بمحمد الذي هو مصداق لهذا الدعاء فإنه يرتكب حمقا وغباء لا نظير لهما، ذلك أنه غير مستعد للانضمام إلى نظام رائع لتلاوة آيات الله وتعليمها، وترويج كتابه: ولبيان ما وراء أحكام الله من حكم وضرورات، ولإصلاح أفكار الناس وأعمالهم وتزكية نفوسهم. ومن أعرض عن هذا كله فلا يحرم نفسه من تعاليم سامية تنفعه في الروحانية فحسب، بل إنه يهمل أيضا التوجيهات والتعاليم التي ترفع مستوى الإنسان في سياسته واقتصاده وحضارته وأخلاقه، كما أنه يغفل عن فلسفة الأحكام فلا يُصلح فكره وعمله. فهل يقال عمن يعرض عن هذا النظام إلا أنه يرتكب حماقة كبرى؟

ومن معاني (سفه نفسه) أهلكها وأوبقها، فالمراد من قوله تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) أن المعارضين لمحمد رسول الله.. سواء من مشركي مكة أو من اليهود والنصارى.. عليهم أن يتذكروا أنهم إذا لم يؤمنوا بهذا النبي الذي جاء مصداقا لدعاء إبراهيم، وأهملوا الأهداف من بناء الكعبة، وأغمضوا النظر عن الغرض من مكوث هاجر وإسماعيل في مكة.. فسوف يهلكون أنفسهم.. بمعنى أنهم فضلا عن إهلاك أنفسهم بحرمانها من هذه التعاليم السامية فإنهم يهلكونها بإيقاعها في عذاب الله.. كما فعل أبو جهل، فإنه إذا لم يعمل بتعاليم الإسلام حرم من فضل الله تعالى، وهذه نتيجة طبيعية للكفر. ولكن كانت هناك نتيجة شرعية للكفر رآها بنفسه إذ عاقبه الله، فمات ذليلا مهانا بأيدي غلاميْن أنصاريين في غزوة بدر (البخاري، كتاب المغازي).

ومن معاني سفِه: جهل..فيعني قوله تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) أنه لا يعرض عن ملة إبراهيم إلا الذي يريد أن يبقى جاهلا بالحقائق السامية. أي أن هذا التعليم العظيم الشأن النازل نتيجة للدعاء الإبراهيمي يصقل

المؤهلات الكامنة في الإنسان، ويرفعه إلى أعلى درجات النجاح. فلا يمكن أن يرفضها إلا الذي هو عدو لنفسه ويريد أن يبقى جاهلا بهذا التعليم السامي. ولكن الذي لا يريد أن يتأخر عن غيره في سباق الرقي لا يمكن أن يتخلى أبدا عن مثل هذه التعاليم.. لأن تركها يعني إبقاء النفس في حالة من الغفلة والجمود. وذلك كما حدث مع منكري سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود في هذا الزمن، إذ يوجد بهم جمود وعدم إحساس بصفة عامة. يقولون: نحن نصلي ونصوم ونخرج الزكاة ونتصدق.. ومع ذلك لماذا لا نحظى بلقاء الله؟! مع أن حالهم هو عندما يقفون للصلاة داعين (اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم) يوقنون أن أبواب كل الرقي مسدودة في وجوههم. وعندما يفكر الإنسان مثل هذا التفكير.. فكيف يمكن أن يتولد فيه وهو يصلي ويدعو. .حماس وخشوع يوصله إلى الله؟ عندما يذكر عندهم إبراهيم يقولون: أنى لنا أن نشترك في النعمة التي نزلت على إبراهيم؟ وعندما يذكر إسماعيل يقولون: كيف يمكن أن ينعم الله علينا بما أنعم به على إسماعيل؟ وعندما يذكر إسحاق يقولون: كيف يمكن أن يقدر الله لنا النعم التي أنزلها على إسحاق؟ وعندما يذكر داود وعيسى وموسى يقولون: كيف يمكن أن يتيسر لنا من نعم الله ما تيسر لهم؟ فكلما يرون خيرا يقولون لا يمكن أن يكون لنا نصيب منه. إذن كيف يمكن أن يتولد في قلوبهم الحماس وقت الدعاء؟ ولكن سيدنا المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام) رفعنا إلى مقام بحيث إذا ذكر أمامنا أحد أنبياء الله فإننا نقول: يمكن أن يهبنا الله كل النعم التي وهبها لهم، وإن أبواب مراتب القُرب التي نالها الأولون مفتوحة أمامنا أيضا. فنحظى بنعمه، بينما لا ينفك معارضونا محرومين من نعم الله التي نحظى بها.

فيقول الله هنا أن الهدي النازل، استجابة لدعاء إبراهيم يستثير قوى الإنسان، ويرتقي بالنفس الإنسانية إلى أعلى مراتب الرقي. إنه لا يعلِّم بأن الإنسان وُلد آثما، بل يقولا إنه جُبل بفطرة صالحة، وخُلق للتقدم في الخير، ولذلك يوجد في قلب كل مسلم رغبة في أن يكون صالحا ويتقدم في الصلاح، ويزداد قربا إلى الله تعالى. ولكن إذا اعتقد الإنسان بأنه خُلق آثما فإنه يصبح ميْتا، ويقول: لا حاجة لعمل

صالح. ولكن الله تعالى يقول: لا يمكن أن يستغني الإنسان عن هذا التعليم، لأن فيه منافع وفوائد كثيرة، ولا يعرض عنه إلا الذي يجهل حقوق نفسه ومصالحها.

وبقوله تعالى (ولقد اصطفيناه في الدنيا)بين أن إبراهيم كان ذا صفوة وحظوة عنده سبحانه تعالى، وكان عبدا مختارا ذا فضيلة وقربٍ لديه.

(وإنه في الآخرة لمن الصالحين) وسيكون في الآخرة من عباد الله الذين يعملون في الجنة أعمالا مناسبة للحال. ويُستنبط من ذلك بوضوح أن الجنة أيضا مكان عمل، وليس –كما يتصور عامة المسلمين –بأن الإنسان في الجنة يبقى عاطلا من العمل منهمكا في الأكل والشرب. ولو كان الأمر كما يقولون لقال الله تعالى إن إبراهيم سينال من الحور العين كذا، ومن أطايب الطعام والشراب كذا، ولكنه بدلا من ذلك "إنه في الآخرة لمن الصالحين ".. ويتبين من ذلك أن الإنسان يعمل صالحا في الآخرة أيضا. فهل يتصور أحد أن إبراهيم لن يصلي في الآخرة – والعياذ بالله؟ أو أنه لن يكون في قلبه الرغبة للتقرب إلى الله في تلك الحياة؟

فلا بد إذن أن تكون الآخرة أيضا حياة عمل، وستبقى أبواب قرب الله مفتوحة هناك كما هي مفتوحة هنا.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣٢)

شرح الكلمات:

أسلمت– أسلم: انقاد؛ تديَّن بدين الإسلام؛ سلَّم أمره لله (الأقرب).

التفسير: عموما يتعدى الفعل (أسلم) بحرف (إلى)، ولكنه هنا تعدى بحرف (اللام)، ويرى المفسرون أن (اللام) هنا بمعنى (إلى). ولكني لا أرى هذا القول صحيحا، وذلك لأن إبراهيم رد على قول الله (أَسْلِم) بقوله (أسلمتُ)..وهذا يتضمن تلقائيا انقياده لله تعالى، لأنه ما كان لينقاد إلا لله فقط. فلم تأت (اللام) هنا ليظهر انقياده لله تعالى، وإنما الحق أنه بين سبب إسلامه فقال: إنني لم أُسلم نفسي لربي ولا أطيعه لمنفعة شخصية. .وإنما أفعل ذلك لأجل رب العالمين، لكي أناله،

لأنه محسن لي ولكل العالمين، ولا أحب أن أبقى بعيدا ومنفصلا عنه. وكأن هـذا موضوع زائد بيَّنه بقوله (لرب العالمين).

لقد أمره الله (أسْلِم).. أي يا إبراهيم.. لا آمرك فقط ألا تسجد لصنم، وإنما أريدك أيضا أن تسخِّر خطرات قلبك كلية في طاعتي. فأجاب على الفور: أسلمت لـرب العالمين. .يا رب، إن كل ذرة من كياني فداء لك. إن عقلي وعملي وذكائي رهن إشارتك، وكل قواي مسخرة في سبيل رب العالمين. كأنه قال: إن حياتي ليـست لي، وإنما هي وقف للعالم كله، وأن الشفقة على كل الخلق هي ضمن برنامجي مـا دمت مظهرا لصفة (رب العالمين) فلن أهمل خلقه أبدا، ولن أطلب الخير لنفـسي فقط وإنما أطلبه للإنسانية جمعاء.

وبقوله (أسلمت) أشار إلى أن كل ذرة من كياني وروحي فداء من قبل الله، فيا رب عامِلْني كما شئت. وبقوله (لرب العالمين) بين أني وقفتُ نفسي لكل العالم. لأني مظهر للصفة الإلهية (رب العالمين). ولما كان سيدنا إبراهيم حائزا على مقام (أسلمت لرب العالمين) دعا قائلا: (ربنا ابعث فيهم رسولا منهم). لم يكن إبراهيم مبعوثا للعالم كله ولذلك التمس: يا رب، ابعث من ذريتي في المستقبل رسولا عظيما لخير الدنيا كلها حتى يستفيد منه خلق رب العالمين.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٣).

التفسير: يقول الله تعالى إن كلا من إبراهيم وحفيده يعقوب وصّى أبناءه وأكّـد عليهم ألا يجعلوا خيرهم محصورا في ذاتهم أو أمَّتهم، بل يوسعوا دائرتـه ليـشمل العالم. والمراد من (الدين) في قوله تعالى (اصطفى لكم الدين) هو خطة عمل لخـير الإنسانية جمعاء. وكأن إبراهيم وصّى حتى أولاد أحفاده أن يجعلوا أنفسهم مظاهر الصفة الإلهية (رب العالمين)، وألا يحرموا أمة من الأمم من خيرهم ونصحهم.

قوله تعالى (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) له معنيان: الأول –أن تبقوا دائما في حالة الإسلام. الإنسان لا يعرف وقت الموت.. لذلك من واجبكم أن تظلوا مطيعين لرب العالمين على الدوام؛ فتعيشوا في انقياد تام له حتى إذ جاءكم الموت وجدكم في حالة طاعة كاملة لله.

والثاني- أن تنشئوا مع الله علاقة قُرب بحيث لا يرضى بهلاككم، فلا يميتكم إلا وقد أصبحتم مؤمنين كاملين من أهل رضوانه.

يتبين من القرآن الكريم أن كل إنسان يمر بحالات من القبض والبسط. فحينًا يستغرق في حب الله استغراقا ينسيه الدنيا، وحينا آخر ينهمك في الأمور الدنيوية انهماكا ينسيه ربَّه، ورد في الحديث أن شخصا جاء النبي ﷺ وقال له يا رسول الله لقد صرت منافقا. قال: كيف؟ قال: يا رسول الله، عندما أكون عندك أصير في حالة روحانية عالية، وعندما أرجع إلى البيت أكون في حالة دون ذلك. قال: لا تخف، لو أن الإنسان بقي في حالة واحدة من الروحانية السامية لأهلكته[٧].

الحق أن للقبض والبسط درجات مختلفة. فحالة القبض لدى المؤمن الكامل كحالة البسط عند المؤمن الأدنى منه درجة. والأنبياء أيضا يمرون بحالة من القبض والبسط، ولكن القبض لدى الأنبياء يكون بمثابة البسط لدى الصديقين. ويشير الصوفيون إلى ذلك في قولهم: "حسنات الأبرار سيئات المقربين"

(تشييد المباني في تخريج أحاديث مكتوبات الإمام الرباني، ص٣٤). وهذا يعني أن ما يعتبره الناس حسنة يُعتبر عند الخاصة الكُمَّل في الروحانية سيئة، وأن ما يُعتبر سيئة لدى المتوسطين يُعتبر حسنة عند من هم أدنى منهم درجة. وما دام الإنسان يمر بهاتين الحالتين ولا يعرف وقت الموت، لذلك قال إبراهيم: عليكم أن تزدادوا قربا

---

[٧] وأقرب حديث لما ورد في التفسير هو " عَنْ حَنْظَلَةَ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ الْعَيْنِ فَقُمْتُ إِلَى أَهْلِي وَوَلَدِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ. قَالَ فَذَكَرْتُ الَّذِي كُنَّا فِيهِ، فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: نَافَقْتُ نَافَقْتُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّا لَنَفْعَلُهُ، فَذَهَبَ حَنْظَلَةُ فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا حَنْظَلَةُ لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ أَوْ عَلَى طُرُقِكُمْ. يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً" (ابن ماجة، الزهد)

من الله، فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم أفضل حالة من القرب، ولا يأتيكم ملك الموت لِقبْضِ أرواحكم إلا وأنتم على صلة صادقة بالله تعالى.

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٤).

شرح الكلمات:

آبائك –الأب: الوالد. يُسمّى كل من كان سببا في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره أبا. ويسمى العمُّ مع الأب أبوين، وكذلك الأم مع الأب، وكذلك الجد مع الأب (المفردات).

التفسير: قوله تعالى (إذ حضر يعقوب الموت) أسلوب للكلام لا يعني حالة النزع والغرغرة، وإنما يعني عندما اقترب موته.. وإلا فإن الإنسان لا يستطيع الكلام وقت النزع. .عندما تبدأ غرغرة الموت تؤثر على حواسه.. وإن كانت مدتها تقل أو تطول بعض الأحيان. وقد قال النبي ﷺ (إن الله عز وجل ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر) (الترمذي، أبواب الدعوات)..أي قبل حالة الغرغرة والنزع يمكن أن تقبل توبة الإنسان. .لأنه عند غرغرة الموت تختل الحواس. وهذه الغرغرة على نوعين: البدائي والحقيقي. وكان سيدنا المهدي يقول: إن أبانا كانا قويا جدا، وعندما بدأت غرغرة موته قال: غلام أحمد، هذه هي الغرغرة. وبعد بضع دقائق أسلم الروح.

فقوله تعالى (إذ حضر يعقوب الموت) يعني اقترب أجله ووقت موته.

وقوله تعالى (إذ قال. .) بدل من (إذ حضر..) وكأن المعنى: عندما رأى يعقوب وقت موته قريبا وصّى أبناءه وقال لهم: ما تعبدون بعدي؟ قالوا:نعبد إلهك وإله آبائك.

لقد اعترض المسيحيون على هذه الآية قائلين بأن إسماعيل لم يكن من آباء بني يعقوب وإنما كان عما لهم، فلماذا ذكره القرآن ضمن (آبائك)؟ ولكن اعتراضهم دليل على جهلهم الشديد باللغة العربية، فكلمة (الأب) تستخدم للعم أيضا. ولكنهم ما داموا لا يقرءون القرآن إلا بنية الاعتراض عليه لذلك يثيرون الاعتراض على كل شيء، ولا يرون أن هذا دليل على عَماهم هم.

وهنا ينشأ سؤال: ما داموا قد قالوا: (نعبد إلهك) فلماذا أضافوا (إله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا).. مع أن معبود اليهود هو معبود إبراهيم وغيره؟ الحكمة في هذا التكرار أن ذات الله تعالى غيب وراء كل غيب. .لا يمكن أن يراها الإنسان. إننا نستخدم لله كلمات: رب، رحمان، رحيم، ولكنها لا تكفي لتقديم حقيقة كاملة واضحة لذات الله. عندما يريد الإنسان توضيح أمر يسلك طرقا مختلفة، فمثلا حينما يريد ذكر إحسان من محسن يقول: لفلان عليَّ يد. ثم يشرح إحسانه ونعمته عليه، وكيف أحسن، وبماذا أحسن إليه. كذلك فإن جمال الله وجلاله يتم ظهورهما بتجليات مختلفة عديدة.. فمنها ما ظهر على إبراهيم، ومنها ما ظهر على إسحاق، ومنها ما ظهر على إسماعيل. فرأى أولاده ذكر آبائهم ضروريا، وقالوا: إننا واقفون على تجليات الله التي ظهرت على هؤلاء. لقد شاهدنا حياة إبراهيم، والتجليات التي ظهرت عليه، كما رأينا ما ظهر على إسماعيل وعلى إسحاق من تجليات. وهكذا يذكرون علمهم التفصيلي عن الله ويقولون: هل يمكن أن نكفر بالله بعد رؤية كل هذه التجليات. ومثل ذلك ما حدث عند فتح مكة إذ أمر النبي ﷺ بقتل هند زوجة أبي سفيان أينما وُجدت لأنها حرّضت على قتل كثير من المسلمين. ولكنها كانت امرأة ذكية، إذ اختفت متنكرة وسط السيدات اللاتي جئن ليبايعن رسول الله ﷺ. وعندما اشترط عليهن النبي ألا يشركن بالله قالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه (تاريخ الطبري، السنة الثامنة، فتح مكة)..أي هل نشرك بالله بعد كل هذا؟ كنت وحيدا وقام العرب جميعا في وجهك، ولقد خالفناك وعارضناك وبذلنا كل ما في وسعنا لمحاربتك، ورغم كل هذا أفلحت ونجحت، و لم تغن عنا أصنامنا شيئا، فهل نشرك

بالله بعد كل هذه الآيات البينة. كذلك أجاب أولاد يعقوب. كان ما صدر من بعضهم مع يوسف يدل على عدم إيمانهم، كما كانت عبادة الأصنام شائعة في مصر، لذلك سألهم أبوهم في آخر حياته: كنتم تطيعوني وتتبعونني في حياتي. .فأخبروني الآن.. ما هي نيتكم بعد وفاتي؟ فقالوا: لقد تقوّى إيماننا الآن، وقد ظهرت علينا كل هذه التجليات الإلهية، فكيف يمكن أن نترك الله وعبادته؟ كنا جهّالا عندما عادينا يوسف وألقيناه في البئر، أما الآن فلا يمكن أن نرتكب هذه الحماقة مرة أخرى.

قوله تعالى (إلها واحدا) بدل من (إله آبائك). لأنهم ذكروا الله مضافا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد يُساء الفهم ويظن أن الآلهة متعددة، ولإزالة سوء الفهم هذا قالوا (إلها واحدا). وقد يكون (إلها واحدا) حالا من المفعول به (إلهك)..أي حال كونه إلها واحدا. إن الإله سيكون واحدا وإن تعددت تجلياته. والحق أن في هذا القول تنبيها لليهود إلى أن يعقوب أوصى قبل وفاته بعبادة إله واحد، ومع ذلك فإنكم –ذريته –تعبدون اليوم أهواءكم.

قوله تعالى (ونحن له مسلمون) يبين أن كل عابد صادق في عبوديته لله مسلم عند القرآن. ذلك أن يعقوب قال (لا تموتن إلا وأنتم مسلمون)، وقال أبناؤه (ونحن له مسلمون).. وتمّ هذا الحوار حينما لم يكن النبي ﷺ قد بعث بعد، ويتبين من ذلك بوضوح أن التابع الصادق لأي دين سماوي كان مسلما، ولذلك كان الأتباع الصادقون للأديان السابقة، الذين عملوا بتعاليمها بإخلاص.. كلهم في نظر القرآن مسلمين، لأن كل من يؤمن بالله ورسول زمنه يصبح مسلما.

ولكن هناك فرق بين أولئك المسلمين وبين المسلمين من أمة محمد. فهؤلاء لم يكن اسمهم مسلمين، ولكننا –أمة محمد ﷺ– ننادى باسم المسلمين كعَلَم لنا. كان أبناء الأمم السابقة مسلمين من حيث الطاعة والانقياد لله بلا شك، ولكنهم ما كانوا يستخدمون وصف مسلم اسما لهم وما كانوا ينادون به، أما أمة النبي محمد ﷺ فإنهم مسلمون من حيث الطاعة والانقياد، ومن حيث الاسم الذي ينادَون به أيضا. والسبب في ذلك أن الأديان السابقة كانت معرضة للنسخ، وما كان اسم الإسلام

ليُنسخ أبدا، لذلك أطلق اسم الإسلام كعلم على أهله حتى لا يقع الفساد و الاختلال؛ ولا يسمى بالمسلمين إلا اتباع دين باق إلى يوم القيامة.

الحق أن الله تعالى لا يطلق على أحد اسما إلا إذا كان مقدرا أن يبقى الاسم إلى الأبد. .فمثلا لم يوهب أحد من الأنبياء شرف وجود اسمه في كلمة الشهادة سوى نبينا محمد ﷺ. لا شك أن بعض المسلمين قد اخترعوا من عندهم شهادات تتعلق بالأنبياء السابقين "لا إله إلا الله –عيسى روح الله " أو"لا إله إلا الله موسى كليم الله " أو لا إله إلا الله –آدم صفيّ الله "، واختلقوا لهذه الشهادات روايات أيضا (دعاء كنج العرش، أي دعاء كنز العرش، ص ١٤و١٥) ولكن الحقيقة أنه لم يكن لأحد من الأنبياء منذ آدم إلى عيسى – عليهم السلام – أي كلمة للشهادة. هناك كلمة واحدة للشهادة هي تلك التي قدمها النبي ﷺ.. أي "لا إله إلا الله – محمد رسول الله "، ولو كان قد أضيف اسم نبي إلى اسم الله من قبل هكذا ثم أزيل لكان في هذا إساءة، ولذلك لم يُقرن باسم الله تعالى إلا اسم محمد رسول الله.. لأن المقدَّر أن يبقى اسم محمد هكذا إلى يوم القيامة.

على كل حال، فإن من سنة الله تعالى أنه لا يهب لشيء اسما إذا كان من المقدر أن يُمحى هذا الاسم. ولما كانت أمة المصطفى ﷺ قدِّر لها أن تبقى ليوم القيامة لذلك سماها الله أمة مسلمة. كذلك أطلق الله على تعاليم المصطفى اسما وهو القرآن، أما الكتب السماوية مثل التوراة والإنجيل وغيرهما فلم يسمِّها الله باسم من عنده، وإنما هي أسماء من وضع الناس. نعم، لقد ذكرها الله بنفس هذه الأسماء في القرآن، ولكن لا حجة في ذلك على أن التسمية من الله. فمثلا ذكر القرآن اسم الصحابي "زيد "، وهذا لا يعني أن الله سماه زيدا عند مولده، وإنما سماه بهذا الاسم أبواه، وذكره الله بنفس هذا الاسم لأنه كان معروفا به.

ثم أن عدم تسمية اتباع الأديان السابقة بمسلمين يرجع أيضا إلى أن الدين الكامل هو الذي يستحق أن يعطى هذا الاسم. فلما جاء ذلك الدين الذي هو أفضل الأديان بسبب كماله أطلق الله عليه اسم الإسلام، ليشير اسمه إلى غايته وغرضه بما فيه الكفاية.

ويعترض القسيس المسيحي ويري Wherry على هذه الآية قائلا إن محمدا قد ادعى فيها بأن السابقين من الأمم كانوا تابعين لدينه، ثم يأتي القسيس بحجج كثيرة ليدحض بها هذا الادعاء الذي هو اختلاق من عنده (تفسير ويري للقرآن، ج١ تحت هذه الآية).

الحق أن ويري قد خدع نفسه. فالإسلام لا يقول إن هؤلاء الأوائل كانوا يعملون بنفس الأمور التفصيلية الموجودة في الإسلام، وإنما يقول إن هؤلاء كانوا في وقتهم أتباعا صادقين لأديان صادقة. وهذا ما لا يمكن أن يرفضه أي إنسان سليم العقل. أما تسمية "مسلمون "فلم تطلق كعلَم إلا على أمة محمد دون غيرها.

وبقي سؤال: هل قام يعقوب بهذه الوصية أم لا؟ وما الدليل عليها؟

أولا-إنه ليس من واجبنا تقديم الدليل على ذلك من التوراة. وثانيا — من البديهي المعروف أن كل رجل صالح ينصح أولاده بمثل هذه النصائح ويوصيهم بالعمل بها، وخاصة الوصية قبل الموت للأولاد أمر شائع نشاهده في حياة آلاف الناس. وثالثا — إن هذه الوصية كانت ضرورية ليعقوب لأن أولاده كانوا قد تعثروا من قبل، والآباء يهتمون بأولادهم إذا تعثروا من قبل فينصحونهم قبل الوفاة، لذلك كان هذا الأمر منطقيا وفطريا لا يُنكر.

ولو كان سيدنا يعقوب قد قام بهذه الوصية فعلا لم يكن من المتوقع أن يحتفظ بنو إسرائيل بها في التوراة؟ إن هؤلاء الذين أبغضوا سيدنا إسماعيل لدرجة أنهم يتحينون الفرص للطعن في بني إسماعيل.. كيف يتوقع منهم أن يتركوا في التوراة ذكر إسماعيل وبنيه بخير؟

ورغم أن كتبهم ليست بمناجاة من التحريف والتشويه بأيدي الناس إلا أننا نجد لهذه الوصية آثارا باهتة قد هيأها المسيحيون أنفسهم. فهناك العديد من العلماء المسيحيين الذين قاموا بترجمة معاني القرآن الكريم منهم، "رودويل Rodwell "،فقد كتب في هامش ترجمة للقرآن الكريم أنه ذكر في "مدراش رَبَّاه "-وهو جزء من التلمود —في شرح تكوين، إصحاح ٤٩:٢: أنه عندما غادر أبونا يعقوب هذه الدنيا جمع أبناءه الاثني عشر وقال لهم: أصغوا لقول أبيكم إسحاق. هل في قلوبكم

أية شبهة حول إلهكم القدوس؟ فقالوا: اسمع يا إسرائيل أبانا، كما ليس في قلبك أدنى شبهة كذلك ليس في قلبنا، لأن ذلك السيد هو إلهنا وهو واحد (ترجمة رودويل للقرآن ج١ ص ٣٥١ تحت هذه الآية).

فواقعة جمع يعقوب لأولاده، ووصيته لهم، وإقرارهم بإله واحد ثابتة في التوراة، وإن لم يرد بكل التفاصيل. وهذا هو الفارق بين القرآن المجيد والتوراة، مما يزيده عظمة. فبرغم من نزوله بعد التوراة بتسعة عشر قرنا يبيّن التفصيل الصحيح لهذا الحادث في حين أن التوراة لم تفعل ذلك مع أن الحادث من زمنها.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٥).

شرح الكلمات:

خلت- خلا: مضى. يقال خلا الشيء أو الزمان: مضى (المفردات). وخلا فلان: مات (للسان). خلت: ماتت؛ انفضت؛ صارت إلى الخلاء.. وهي الأرض التي لا أنيس فيها.

التفسير: يظن الناس عموما أن أعمال آبائهم سوف تغنيهم وتفيدهم. كانوا صلحاء فنحن أولادهم سوف نكن معهم في الآخرة. ولكن الله تعالى يدحض هذا الظن فيقول إن أعمالهم كانت معهم، وأعمالكم معكم.. ولا تسألون عما كان يعمل آباؤكم، وإنما تسألون عما كنتم تعملون أنتم. لو كنتم مسئولين عن أعمالهم أمكن أن تكتب لكم النجاة.. ولكن السؤال الذي سوف يوجه إليكم: ماذا كنتم أنتم تعملون؟ فقال الله تعالى (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم).. أي أن أعمالكم الحسنة هي التي سوف تفيدكم، أما أعمالكم السيئة فلا تكتب في أعمالهم. لن تسألوا عما كان إبراهيم وإسحاق وغيرهما يفعلون، وإنما تسألون عما كنتم أنتم تعملون.

ولا يعني قوله تعالى (ولا تسألون عما كانوا يعملون) أنكم لا تسألون عما ارتكبه آباؤكم من ذنوب، وإنما يعني أنكم لن تسألوا عما كانوا يأتونه من الأعمال الحسنة، بل تسألون عن أعمالكم الذاتية، لذلك لا تظنوا أن نجاتكم متوقفة على أعمال أسلافكم.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١٣٦)

شرح الكلمات:

حنيفا –الحنيف: المائل عن الشيء؛ والمائل عن الضلالة إلى الهدى (المفردات)؛ والحنيف: المستقيم؛ الصحيح الميلان إلى الإسلام (أقرب المارد).

وهناك معنى آخر ثابت من القرآن الكريم وهو الذي يؤمن بالرسل كلهم، لأن الله تعالى يذكر بعد هذه الآية مباشرة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق. .إلى قوله تعالى. .وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون). وقد ذكر ابن كثير قولا لأبي قلابة، وهو أن الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم (تفسير ابن كثير، تحت هذه الآية). ولا أدري من أين استدل على هذا القول، ولكن استدلالي من الآية التالية.

التفسير: يقول الله تعالى إن اليهود يدَّعون أنه إذا صار الإنسان يهوديا نجا، ويدعي النصارى أنه إذا كان الإنسان مسيحيا نجا.. ولكن الفئتين كلتيهما على خطأ، بل الحق أن الإنسان لا يفوز بالنجاة إذا اعتنق اليهودية أو النصرانية، وإنما تتوقف نجاته على أن يتبع ملة إبراهيم. و لم يقل الله هنا أن نجاة الإنسان متوقفة على أن يُدعى إبراهيميا، لأن ذلك يكون مثل ادعاء اليهود والنصارى بالانتساب إلى دين ما.. ولكن النجاة الحقة أن يتبع الإنسان طريق الهداية، وهذا ما كان يفعله إبراهيم، وهذه هي ملَّته.. إذ كان دائما مطيعا لأوامر الله تعالى.

الواقع أنه تتسرب إلى أذهان أتباع أي دين من أديان العالم زمن انحطاطهم فكرة أن النجاة متوقفة على الانضمام إلى هذا الدين أو ذاك، ولكن هذه الفكرة خاطئة، لأن النجاة متوقفة على فضل الله تعالى، وطريقة جذب هذا الفضل الإلهي هو الطاعة لله. هناك إمكانية النجاة في دين صادق ما دام الانضمام إليه يؤدي إلى طاعة الله، أما إذا لم يؤد إلى طاعة الله فلا مكان للنجاة عن طريقه. لذلك عنَّف الله اليهود والنصارى الذين كانوا يؤكدون بأن من أراد الهداية فعليه أن يدخل في دينهم. .فقال لهم: هل مجرد الانضمام إلى دين ما يؤدي إلى النجاة؟ كلا، بل إنما النجاة تتوقف على أن يتبع الإنسان ملة إبراهيم، وكانت طريقة إبراهيم أنه كان يُسْلم إلى كل أمر يأتيه من الله ويقبله. هذا هو دين إبراهيم، واتِّباع هذا الدين فريضة على كل من يحترم إبراهيم.

لقد ذُكر من معاني (الحنيف) أنه ذلك الذي يكون مائلا عن الضلالة إلى الهدى، والحنيف أيضا من يحب الإسلام ويفديه بكل شيء، ويوجه كل اهتماماته إلى الله. وقد ذكرنا قول أبي قلابة المفسر الكبير وهو من التابعين أن الحنيف هو من يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، ولا يرفض أحدا منهم. إذن فقوله تعالى (ملة إبراهيم حنيفا) يبين أن إبراهيم كان حائزا على مقام من العبادة والطاعة بحيث إن مجرد تصور الضلالة لم يكن ليتطرق إليه أدنى تطرق، وإنما كان دأبه الطاعة الكاملة والاستسلام التام لأوامر الله تعالى.

ثم قال (وما كان من المشركين)، وبهذه الجملة المضافة إلى قوله (حنيفا)-أي من يؤمن بكل رسول –ألقى الضوء على حقيقة أن الذي يقفل باب الإلهام والنبوة والرسالة ويتوقف عند مقام فإنه في الحقيقة مشرك. .لأن أنبياء الله كمرآة تعكس صفاته، وعن طريقهم يتجلى التوحيد الحقيقي في العالم. التوحيد لا يعني فقط أن يعتبر الإنسان الله تعالى واحد أحدا، بل إن أهم مقومات التوحيد أن يؤمن الإنسان أن الله تعالى وحيد فريد في جميع صفاته، ولا شريك له من المخلوق في هذه الصفات. والحق أنه عندما ينقضي زمن

طويل على بعث نبي فالذين يقرون بالتوحيد أيضا يقعون في أنواع الشرك، ويختفي عنهم الوجه الحقيقي لله تعالى، كما كان الحال عند بعث سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود –عليه السلام. فالمسلمون كانوا يؤمنون بوحدانية الله تعالى، ولكنهم مع ذلك كانوا يعتقدون بأن المسيح الناصري – عليه السلام –قادر على أن يحيي الأموات، ويخلق الطيور، ويعلم علم الغيب. والظاهر البين أن كل هذه الأمور هي من عقائد الشرك. إن سيدنا المهدي –إلى جانب إصلاحه للعقائد الأخرى لدى المسلمين –قام بدحضٍ قويٍّ لمثل هذه العقائد الشركية، وأقام في الدنيا توحيد الله الخالص: فبدون الإيمان بأنبياء الله تعالى يكون من المستحيل قيام التوحيد الحقيقي في العالم. ولذلك عندما ذكر الله أن الإيمان بذاته –عز وجل–ضروري. .ذكر أن الإيمان بأنبياء الله أيضا ضروري، وأنه لو لم يأت هؤلاء الأطهار إلى العالم لم يستطع الناس رؤية وجه الله، و لم يستطيعوا الخروج من هذه الضلالة والظلمات. وما دامت معرفة الله منوطة بالإيمان بأنبيائه.. لذلك أضاف قوله تعالى (وما كان من المشركين) إلى قوله (حنيفًا).. لينبه إلى أن إبراهيم لم يكن من المشركين، لأنه كان يؤمن بدوام سلسلة النبوة. ولذلك أمر في الآية التالية على الفور: قولوا إننا نؤمن بالأنبياء السابقين جميعا وما أوتوا من ربهم، ونؤمن أيضا بما يُعطَى النبيّون في المستقبل. ومما لا شك فيه أن قوله تعالى (وما كان من المشركين) يعني أيضا أن إبراهيم كان بريئا من الشرك تماما، وكان يعبد إلها واحدا، والدليل على ذلك أنه على الرغم من أن مشركي مكة كانوا قد وضعوا في الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستين صنما.. ولكنهم لم يكونوا يعتقدون أن إبراهيم كان يعبد أحدا منها، بل كانوا يقرون أنه كان موحدا كاملا، ورواياتهم القديمة تصدق ذلك. كما تؤكد

أحوال إبراهيم الواردة في التوراة أنه لم يكن في تعاليمه أي شائبة من الشرك. هذا المعنى صحيح وفي محله، ولكن إضافة (ما كان من المشركين) إلى قوله (حنيفا) يبين أن المراد من الشرك هنا ليس ذلك الذي يقع في أعمال الشرك المعروفة وإنما المراد الذي يعتقد أن النبوة قد انقطعت، وأن باب الوحي مسدود..لأنه بهذه العقيدة الفاسدة التي اخترعها يحول دون انتشار توحيد الله الحقيقي، في حين أن الطاعة الحقيقية هي أن يصدق ويؤمن ويقبل الإنسان ما يأمر به الله تعالى، ويلبي دعوة كل نبي من عند الله في أي زمن.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٧)

شرح الكلمات:

الأسباط- جمع سِبط، وأصل السبط انبساط في سهولة. يقال: شَعْرٌ سَبْط وسَبِط، ورجل سبْط الكفَّيْن: ممتدهما، ويعبَّر به عن الجواد. والسبط ولد الولد، كأنه امتداد الفروع (المفردات). فالأسباط بمعنى الأحفاد، أو نسل يعقوب الذين كانوا سببا في اتساع دائرة أسرته.

التفسير: يتبين من هذه الآية أن المسلم هو ذلك الذي يؤمن بكل أنبياء الله تعالى، ومن حيث مرجعيتهم لا يفرق بين أحد منهم. يؤمن بالأنبياء الذين يعرفهم بأسمائهم، ويؤمن بالذين لا يعرف أسماءهم إيمانا إجماليا. ويؤمن أن الله تعالى قد بعث في كل قوم رسولا، ويراهم صادقين، وأن تعاليمهم كانت من الله تعالى. فالذي يصدق بنبي زمنه أو بالأنبياء السابقين على زمنه ولا يكفر بأحد منهم هو المسلم؛ لأن الله قال هنا: قولوا بأن كل هؤلاء كانوا أنبياء صادقين، ثم قال: قولوا ونحن له مسلمون، مما يدل على أن الإنسان بهذا الإقرار الكامل يصبح مسلما.

إن أتباع الديانات الأخرى يدعون إلى تصديق أنبيائهم، ولكنهم لا يولون اهتماما بالدعوة الى تصديق جميع الأنبياء لدى الأمم الأخرى، أما الإسلام فيمتاز وحده بدعوته إلى تصديق جميع الأنبياء، سواء بُعثوا في بني إسرائيل أو الهندوس أو الفُرس أو أي قوم أو بلدٍ من العالم. ولكن ذلك لا يعني إيمانا تفصيليا وإنما إيمانا إجماليا. وإلا ما قال (وما أوتيَ النبيون من ربهم).

أريد تنبيه إخواننا المسلمين الآخرين إلى أن الله يقول إن المسلم هو ذلك الذي يؤمن بجميع الأنبياء، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن المسيح الموعود نبي من الله تعالى(مسلم، كتاب الفتن)، وبما أن الوعد ببعث المسيح الموعود قد تحقق في هذا الزمن في شخص مؤسس الأحمدية، فمن واجب كل من ينسب نفسه إلى الإسلام أن يكون حذرا ولا ينظر إلى دعواه باستخفاف وإهمال...لأن في هذا الإهمال خطر ضياع إسلامه.. هذا المتاع الثمين. لأن المسلم من يؤمن بجميع أنبياء الله تعالى، ونبوة المسيح الموعود ليست استثناء من ذلك. فهناك حاجة لأن يكون المسلمون حذرين متنبهين.

وقوله تعالى (لا نفرق بين أحد منهم) لا يعني أبدا أن جميع الأنبياء على درجة واحدة ولا فرق بينهم، لأن هناك آية أخرى من نفس هذه السورة تقول: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)(٢٥٤). فالمعنى أن لا فرق بينهم من حيث ضرورة الإيمان بهم كأنبياء من عند الله تعالى، سواء كانوا مشرعين أو غير مشرعين، غير أن هناك تفاوتا في درجاتهم اعترف به القرآن نفسه.

يعترض الكتاب المسيحيون على هذه الآية بقولهم إن إسماعيل ليس نبيا، ولكن القرآن يعده من الأنبياء، فأين الدليل على نبوته؟ (تفسير سيل ج١ ص٣٣٨).

الحق أن هؤلاء لو تدبروا لانقلب عليهم نفس الاعتراض؛ فما الدليل على نبوة إسحاق؟ فالدليل على نبوة إسحاق هو نفسه الدليل على نبوة إسماعيل. إن موسى يعلن عن نبوة جده إسحاق، ومحمد يعلن عن نبوة جده إسماعيل. والذي حدث هو أن التوراة بسبب بخلها لم تذكر نبوة إسماعيل، أما القرآن –الذي لا ينكر أي حقيقة ولا يتردد في ذكرها، ويتسامى عن التعصب الطائفي– فقد اعترف بقداسة ونبوة

كلا النبيْن الكريمين. وهل لدى بني إسرائيل من دليل على صدق نبوة إسحاق إلا أن نبيا صادقا –يرون ثبوت نبوته بالأدلة –قد اعترف بـصدق نبـوة إسـحاق؟ والمسلم يأخذ بنفس هذه الحجة ويقول إن الدليل على نبوة إسماعيل أن نبيًّا –صِدْقه متحقق بأدلة أقوى وأثقل من الأدلة التي يتحقق بها صدق الأنبياء الآخرين –قـد اعترف بنبوة إسماعيل. إذا كان إسحاق يعتبر نبيا صادقا بشهادة التوراة..فلماذا لا يعتبر إسماعيل نبيا صادقا بشهادة القرآن؟

إن الكتاب المسيحيين يرفضون صدق نبوة سيدنا إسماعيل بحجة أن التوراة لم تذكر نبوته، مع أن الثابت من التوراة أنه اضطر للهجرة من وطنه وعاش حياة الغربة بسبب غيرة السيدة سارة تجاهه(تكوين ٢١:١٠). وما دامت سارة تحسد إسماعيل وأمه حسدا اضطرهما إلى مغادرة البيت والوطن، والعيش في بلد ناء وظروف صعبة.. فلا يتوقع من بني إسرائيل أن يمدحوه في كتبهم ويذكروا فيها أنه كان نبيا. فليس عجبا ألا تذكر التوراة أحوال إسماعيل ونبوته.

ثم يجب أن يتذكروا جيدا أن عدم ذكر الشيء لا يدل على عدم وجوده.. ومع هذا فهناك إشارات في التوراة الحالية تدل على أن الله قطع في حق إسماعيل أيضا وعودا كبيرة.

أولا- يدل اسمه نفسه على أنه يكون من أحباء الله. فاسم إسماعيل اسم الهامي؛ ومعناه "لقد سمع الله"، ولم يُعطَ إسماعيل هذا الاسم بدون سبب. فقد جاء في الكتاب المقدس: "وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى، فتلدين ابنا، وتدعين اسمه إسماعيل، لأن الرب قد سمع لمذلتك" (تكوين ١٦:١١). ويتبين من ذلك بوضوح أن إسماعيل ولد بحسب بشارة من الله تعالى، وأنه سُمي باسمه بوحي من الله. والذي يولد طبق بشارة من الله ويسمى بوحي من الله تعالى فالقول إنه ليس من أحباء الله وأصفيائه قولٌ يُعد تكذيبا لقول الله ووحيه نفسه.

وثانيا-ورد أيضا في التوراة: "وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك"، والنص العبري للكلمات الأصلية: (ليته يعيش تحت عينيك ويكون مقبولا لديك)! فقال الله تعالى ردًا على ذلك"...وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه

وأثمره وأكثّره كثيرا جدا. اثني عشر رئيسا يلد، وأجعله أمة كبيرة"(تكوين ١٧:١٨ —٢٠). وبالجمع بين هاتين الفقرتين يتبين أن إبراهيم دعا الله لابنه إسماعيل أن يكون من المقربين لديه، لأنه دعا بقوله: يعيش أمامك.. أي عندك وتحت رعايتك، والعيش عند الله لا يعني إلا أن يكون مقبولا لديه. ولو لم يكن هذا مراده لاكتفى بالدعاء له بالعيش فقط.. لأن جميع الناس الذين يعيشون في الدنيا هم في الواقع يعيشون عند الله ولا يغيبون عنه. فاستعمال كلمة"أمامك" إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الولد سيكون من المقربين عند الله أو من الصلحاء الأطهار. فقَبِل الله دعاءه في حق إسماعيل وأخبره أنه سمع له فيه.

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٨)

شرح الكلمات:

شِقاق: الشِّق: الجانب؛ والشقاق: البعد.

التفسير: في الآية السابقة شرح الله الإيمان وبيّن أن الإيمان الكامل هو الذي لا يشترط فيه الإنسان أي شرط، وإنما يقبل كل هدي يأتي من الله بدون أي تحفظ أو قيد من شعب أو بلد أو زمن؛ ولا يقول إنه سيؤمن بالأنبياء السابقين ولا يؤمن بمن يأتي في المستقبل. فسواء كنتَ من العلماء أم لا.. فما أن عرفتَ أن أحدا جاء من عند الله وجب عليك أن تؤمن به على الفور. فالقول بأن النجاة تتوقف على أن يكون الإنسان يهوديا أو نصرانيا قول لا أساس له. وإنما أول شرط للإيمان هو أن يؤمن الإنسان بدون شرط أو قيد. ويكون دائما مستعدا لتلبية نداء الله تعالى.

وهنا في قوله تعالى (فإن آمنوا بمثل ما ءامنتم به) قد جاءت "الباء" مع "مثل" بمعنىً واحد، وقد يبدو هذا تكرارًا في الظاهر ولكنه في الحقيقة ليس تكرارًا. وإنما "الباء" هنا زائدة، ولا يعني كونها زائدة أنها لا معنى لها وإنما هي زائدة لتؤكد المعنى. يتحير البعض عند سماع وصف "زائدة"، ويقول هل في القرآن زوائد؟ فليعلم أن هذا

اصطلاح في اللغة العربية، ولا يعني أن الكلمة الزائدة لا فائدة لها ولا معنى، وإنما يعني أن الكلمة تؤكد المعنى الموجود. فالباء هنا تؤكد معنى كلمة "مثل"، والمراد: تماما مثل. ولو اكتفت الآية بكلمة "مثل" لبقي مجال للظن بأن المشابهة ليست كاملة، ولكن "الباء" هنا لا تترك مجالا لهذا الظن، وإنما وضحت تماما أنه ما لم تكن كل ذرة من إيمانهم مثل إيمانكم لن يسمى إيمانهم إيمانا.

وقد تكون الباء هنا للاستعانة، والمراد أنهم لو دخلوا في الإسلام بشهادة مثل شهادتكم، أي لو أنهم آمنوا شاهدين بأن الأنبياء السابقين أيضًا صادقون كما تشهدون أنتم وتؤمنون بهم فعندئذ يهتدون. وما لم تكن كيفية إيمانهم ككيفية إيمانكم لن يهتدوا. وهذا أيضًا ضرب من التأكيد، والمراد أنهم إذا آمنوا بطريقة إيمانكم كانوا مهتدين، لأن مجرد التفوه بالإيمان بأي نبي لا يجعل من الإنسان مؤمنا. فإذا لم يوجد في إيمانهم ذلك اللون من الوَلَه والعشق الذي يوجد في إيمانكم، ولو لم يقدموا الشهادة على صدق إيمانهم فإن مجرد إيمانهم بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم لا يكفي.

يظن بعض الناس خطأ أن الإيمان بوجود نبي يكفي لصحة الإيمان، مع أن مثال النبي كمثال النّاي، فكما أن الناي يُبلغ الناس صوت النافخ فيه، كذلك النبي يُبلغ الناس صوت الله تعالى، والإيمان بالنبي ضروري فقط لأنه يحمل رسالة من الله. فالإيمان بنبي وإنكار نبي آخر لا يجدي الإنسان نفعا، وإنما ينتفع من إيمانه فقط إذا كان مستعدا لتلبية كل نداء من الله يأتي مع أي نبي.

يذكر الله هنا بعض الأنبياء الذين يؤمن بهم اليهود والنصارى، ويقول للمؤمنين قولوا لهم: إننا نؤمن بكل هؤلاء الرسل، وأنتم أيضا تؤمنون بهم، والآن بعث الله نبيا آخر نؤمن به ولكنكم لا تؤمنون به، فعليكم أن تصدقوه حتى تنالوا من نِعم الله تعالى وتفلحوا دينا ودنيا.

قوله تعالى (وإن تولوا فإنما هم في شقاق) أصله: إن هم إلا في شقاق. يقول الله إنهم إذا تولوا وعارضوكم فلا تقلقوا ولا تحزنوا، إذ ليس هناك أي سبب لإعراضهم سوى أنهم مزمعون على معارضتكم وليسوا مستعدين للاتفاق معكم بحال من

الأحوال. ولعله كان في زمن النبي ﷺ بعض المسلمين من ضعاف القلوب مَن ظنَّ أن هؤلاء سوف يبتعدون عنا أكثر من ذي قبل، فيطمئنهم الله: إنهم كانوا بعيدين عنكم من قبل، وليسوا مستعدين لقبول ما يقربهم إلى الله، وما دام البُغض قد تَمكن من قلوبهم لهذه الدرجة، وما داموا بعيدين عنكم كل هذا البعد من قبل، فكيف يمكن أن يتفقوا ويتّحدوا معكم؟ فلا تخافوا من إعراضهم قائلين: هذا سوف يؤذينا ويسبب الحروب.

وقوله تعالى (فسيكفيكهم الله) يعني أن الله تعالى سوف يكفيك أذاهم، ويحميك من هجماتهم، وسوف يحفظك بنفسه. الحق أنه ما لم يحُز الإنسان هذا المقام من الإيمان لا يمكن أن يسمى مؤمنا حقيقيا. إن مقام الإيمان الصحيح هو أن يقف المؤمن واثقا أن ربه معه ولن يدَعَ عدوَّه يتغلب عليه مهما بذل العدو من جهد لإيذائه، ويقول لو أني مِتُّ في مواجهة عدوي فلا ضير ولا همّ، لأني راجع إلى ربي بعد الموت أيضا. فكِّروا، ألم تكن لصحابة المصطفى ﷺ زوجات؟ ألم يكن لهم أولاد؟ ألم تكن لهم أموال وأعمال وتجارات؟ لو لم يقدموا أرواحهم في سبيل الله تعالى ما وصل الإسلام إلينا، ولَكُنّا تائهين في الضلالة، ولكان منا مَن يعبد الأصنام، ومَن يسجد أمام الآلهة الكاذبة. إن هؤلاء الصحابة عليهم رضوان الله ورحماته وبركاته ألف ألف مرة –ألقوا نفوسهم في صنوف النار، وخَلَّفوا زوجاتهم أرامل وأولادهم يتامى. وجعلوا الدنيا مظلمة في وجوه آبائهم...ليمتعونا بنعمة الإسلام! ولكن الأسف كل الأسف أن المسلمين بعد رؤية هذه التضحيات الهائلة الجسيمة من الصحابة الكرام، وبعد التمتع بنور الإيمان على أيديهم.. لم يقدروا هذه النعمة حق قدرها، وبدلا من أن يخرجوا إلى نفس المضمار الذي خرج فيه الصحابة، وبدلا من أن يقولوا نقبل ما قَبِله الصحابة...خافوا من الأذى الدنيوي ومن الخسائر المادية ورجعوا القهقرى، وترددوا في بذل التضحيات التي يطلبها منهم الإسلام.

يقول الله تعالى: لماذا تخافون؟ إذا كنتم آمنتم بالله فهو الذي يحفظكم ويحميكم من كل أذى وخسران. فإذا لم يؤمن هؤلاء فاعلموا وتأكدوا أن في قلوبهم عداوة

متمكنة نحوكم، وسوف يثيرون الشر، ولكن الله سوف يكفيكم شرهم، ولو هاجموكم يحميكم منهم، ولن يضركم كيدهم شيئا.

(وهو السميع العليم).. لا تظنوا أن الله قد وعدكم بالنصر فلا حاجة لكم لعمل أي شيء بل عليكم أن تستعينوا بالدعاء والتضرع إليه، فهو السميع الذي يسمع كثيرا، والعليم الذي يعلم ما لا تعلمون من المكائد والمؤامرات ولسوف يدبِّر لها ما يبطلها. الإنسان أمام عدوه يكون في حالتين: إما أنه يهاجَم من قبل العدو وهو يعرف أنه يشُن عليه الهجوم، ويحاول من جهته أن يقاوم العدو قدر المستطاع، ويكيد للدفاع عن نفسه؛ أو أن العدو يهاجمه في غفلة منه، أو يتبع أسلوبا في الهجوم لا يدري به.. كأن يشتري بالرشوة بعض أصحابه، أو يتربص له في الطريق، أو يهاجمه وهو نائم، أو يفاجئه في الظلام، أو يرميه عن بعد، أو يدس له السم في الطعام أو الشراب، أو يسرق ماله ومتاعه. كل هذه الهجمات يشنها العدو والمؤمن غافل عنها.

وهناك وسائل وتدابير للدفاع ضد هذين النوعين من الهجمات. يقول الله تعالى إنه لو هاجمكم عدوكم بأيٍّ من هذه الأساليب فإنه يكفيكم شرَّه. لو كنتم تعلمون هجومه ولكن لا قوة لكم للدفاع عن أنفسكم، فلكم إله سميع عليم، يعرف أن العدو يهاجمكم وأنه لا طاقة لكم بصدّه.. فلا تحزنوا، بل ما عليكم إلا أن تنادونا نحضر لنجدتكم على الفور. ولو هاجمكم على حين غرة بأن كنتم نائمين أو في الظلام، أو هاجمكم فجأة متربصا بكم في الطريق، أو دس لكم السم في الطعام، أو غدر بكم ليسرق الأموال، أو أغوى أحدا من أصحابكم ليخونكم.. فنحن على علم تام بكل ما يجري، وعندنا كل قوة..فلا تقلقوا في هذه الأحوال أيضا، بل ادعوا الله تعالى يستجب لكم ويُزِلْ كل مشاكلكم، ويرد عدوكم خاسرا ذليلا.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِن اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ(١٣٩)

شرح الكلمات:

صبغة- الصبغة: الملة؛ الدين؛ الفطرة؛ الصباغ أي دباغ الجلد(الأقرب). فتعني "صبغة الله": اختاروا دين الله؛ أو اتبعوا الطريق الذي هداكم الله إليه؛ أو اتبعوا الفطرة التي وهبكم الله إياها.

التفسير: لقد وردت هنا كلمة "صبغة الله" كمفعول به. من أساليب اللغة العربية حذف الفعل في بعض الأحيان إغراء في شيء. وهنا أيضا حُذِفَ فعل "اتبعوا" قبل كلمة "صبغة الله"، والتقدير: اتبعوا صبغة الله. والمراد: عليكم اتباع دين الله بغض النظر على من نزل هذا الدين، أو إلى أي شعب ينتمي. فما دام التعليم قد جاء من عند الله تعالى وهو ربكم وربنا فيجب ألا يكون لديكم عذر يمنعكم من قبول دين جاء منه، لأن النجاة محصورة في أن يتبع الإنسان دينًا جاء من عند الله. هذا باعتبار "الصبغة" بمعنى الدين.

وإذا اعتبرنا الصبغة بمعنى الملة أي الطريق فالمراد أن الإنسان يكون على خير ما دام يتبع الطريق الذي عيّنه الله له، ولكنه إذا ترك طريق الله واتبع أهواء نفسه واختار سبيلا غير سبيل الله أهلكته أهواؤه وألقته في هوة الدمار.

وإذا أخذنا الصبغة بمعنى الفطرة فالمعنى أن على الإنسان أن يفصل في الخلافات على ضوء ما تمليه عليه فطرته، فقد جعل الله فطرة كل إنسان طاهرة، وهي تساعد كثيرا على معرفة الصدق والحق. ولكن هذا لا يعني أن الفطرة الصحيحة تغني عن الدين؛ كلا، وإنما هي وسيلة لمعرفة الدين الصحيح. ولو كانت فطرة أحد قد مُسخت بيده فإنه لا يستطيع معرفة الدين الحق. ومثال الفطرة الصحيحة أن يأتي إلى المرء خطاب صديق له فيضع المنظار على عينيه لقراءته. ولكن إذا وضع المنظار على عينيه دون أن يقرأ الخطاب لعُدَّ من الحمقى. فالدين كالخطاب المرسل من عند الله تعالى، والفطرة الصحيحة كالمنظار. فكما أن الخطاب هو الأصل، والاستغناء

عنه اكتفاءً بالمنظار يدل على الجهل...كذلك كل من يعتبر نفسه في غنىً عن الدين مكتفيا بالفطرة السليمة فهو أيضا أحمق.

ومن معاني"صبغة الله" الاصطباغ بصبغته، فالمعنى أن عليكم أن تتصفوا دائما بالصفات الإلهية، وتنظروا باستمرار هل أصبحتم مظاهر لصفات الله أم لا؟

الحق أن الإنسان لم يُخلق إلا للاتصاف بصفات الله وأن يكون مظهرا لها. وقد أودع الله الفطرةَ الإنسانية استعدادا لهذا الغرض . ليس هناك إنسان يستطيع القول إنه ليس عنده الاستعداد ليكون مظهرا لصفة الربوبية أو الرحمانية أو الرحيمية أو المالكية. وهناك حديث يشير إلى هذا المعنى فيقول الرسول ﷺ "خَلق الله آدم على صورته" (البخاري، الاستئذان). والظاهر أن الله تعالى ليست له صورة مادية، ولا يقول الإسلام بذلك. فالمراد من الحديث أن الله قد أودع آدم استعدادا وصلاحية ليكون مظهرا لصفاته جل وعلا، فلا يمكن لإنسان أن يقول إنه لا يستطيع أن يكون مظهرا لصفات الله. بل كما أن الله ستّار وشكور ووهاب ورزاق..كذلك يمكن للإنسان أن يكون في دائرته واستطاعته ستارا وشكورا ووهابا ورزاقا.

والحق أنه بحسب الوجهة الإسلامية..لا يمكن أن يحظى أحد بقرب الله ما لم يكن مظهرا لصفاته تعالى، وما لم يكن بينه وبين الله مشابهة ومشاركة من نوع ما، وما لم يصطبغ بصبغته. انظروا إلى الحشرات كيف أنها تتلون بلون الأشجار التي تقع عليها وتعيش فيها. انظروا إلى الفراشات كيف أنها تتخذ ألوان الأزهار التي تحوم حولها وتقف عليها. فهل نحن أضعف حولا من هذه الحشرات، وهل ربنا أقل شأنا –والعياذ بالله– من هذه الأشجار الأزهار؟ أهذه الحشرات والفراشات تتلون بلون الأغصان والأزهار ... ولكن عباد الله إذا اقتربوا من ربهم فإنهم لا يمكن أن يتلونوا بلونه ويصطبغوا بصبغته؟ الحق أن سوء الظن الناشئ من قلب الإنسان هو الذي يجعله خائبا وخاسرا. يخبرنا النبي ﷺ أن ربي قال"أنا عند ظن عبدي بي" (مسلم، الذكر)، سوف أعامل عبدي كما يظن فيَّ. فالذين لا يكون في قلوبهم إحساس بعظمتهم وإيمان بربهم لا ينالون شيئا؛ ولكن الذين يعرفون أن الله تعالى أعزهم وأكرمهم وأودعهم قوى خارقة ويوقنون أن ربهم رحيم، وأنه سوف ينعم عليهم

نعما جزيلة عظيمة فلا يبقون فارغي الوفاض، بل ينالون نصيبهم منها بحسب جهادهم ويقينهم.

فالله تعالى ينبهنا أنه لا بد لكم في هذه الحياة الدنيا من أن تصطبغوا بصبغة أحد ما.. وما دام الحال هكذا فإننا ننصح ألا تصطبغوا بصبغة أهليكم أو أصحابكم أو أبنائكم أو أساتذتكم أو بيئتكم أو حكومتكم..بل عليكم أن تصطبغوا بصبغة إله واحد..فصِلتُكم به هي الذريعة لنجاتكم.

قوله(ومن أحسن من الله صبغة)يعني: من الذي يكون صبغته فيكم أجمل وأبهى من صبغة الله؟ إنكم إذا اتخذتم ألوانه-سبحانه وتعالى- فلن تكون أشكالكم منفرة كالمهرِّجين، وإنما تكون صوركم من أروع الصور التي تراها الدنيا فتبهرها، وسوف يشرفكم بكلامه، ويفتح عليكم أسرار غيبه، ويمتعكم بنعم غير عادية.

أتذكر مرة أنني ذهبت إلى "دلهي" فقابلني هناك عالم كبير من علماء الرياضيات — هو البرفسور مولر، وقال لي أثناء الحديث إنه وبعض أصحابه من العلماء الكبار في نيويورك قد توصلوا في أبحاثهم وتحقيقاتهم إلى أن هناك مركزًا لكل هذا الكون تدور حوله الشمس وغيرها من ملايين الأجرام السماوية، وأضاف قائلا: إن نظريتي تقول إن هذا المركز هو الإله. وكأنه أراد القول بأن العلم كان من قبل يرفض وجود إله للكون، ولكننا أثبتنا بهذا البحث وجود مركز يتحكم في نظام الكون، وأن هذا المركز هو الإله.

فقلت له:إنني لا أعترض على بحثك هذا، فهناك مركز لهذا الكون، بل إن القرآن أيضا يقول إن هذا الكون يجري في ظل نظام وأن له مركزا، ولكن ليس صحيحا أن هذا المركز هو الإله. وسبب ذلك أن الله تعالى يشرفني بإلهامات، ويطلعني على أسرار من الغيب، ولو كان هذا المركز هو الإله —كما تقول..فأخبرني هل يستطيع هذا المركز أن يخبر أحدا بالغيب عن طريق الإلهام؟ فقال: لا. لا يلقي هذا المركز بأي إلهام. قلت: فكيف أقبل أن هذا المركز هو الإله؟ إنني بتجربة شخصية أعلم أن الله تعالى يحدثني ببعض الأمور الغيبية التي تتحقق في ميعادها، بعضها في مدى ستة أشهر، وبعضها في سنة، وبعضها في سنتين، وبعضها في أكثر، وهذا يثبت أن الإلهام

الذي تلقيتُه كان من عند الله تعالى.ثم ضربت له مثالا وقلت: أخبِرني، هل هذا المركز الذي تعتبره إلها يستطيع أن يخبر أحدًا من وراء الغيب أن أميركا سوف ترسل إلى بريطانيا في الحرب العالمية معونة طيران قدرها ٢٨٠٠ طائرة مقاتلة؟ وكنت أشير بذلك إلى الرؤيا التي رأيتها في الحرب العالمية السابقة التي أخبرني الله أثناءها أن أمريكا سوف تُمِدُّ بريطانيا بهذا المدد. بل إن الله تعالى أطلعني على كلمات البرقية نفسها، ورأيت أن المسؤول البريطاني يرسل إلى بلده برقية جاء فيها The American government has delivered ٢٨٠٠ aeroplanes to the British government. وبعد شهرين بالضبط من هذه الرؤيا أرسل المسئول البريطاني برقية من أمريكا تحمل نفس هذه الكلمات. ثم أُرسل هذا العدد من الطائرات إلى بريطانيا من أمريكا.

قال لي البر فسور: هذا المركز الكوني لا يمكن أن يتنبأ بمثل هذه الأنباء. فقلت له: إذن لا بد من الاعتراف أن هناك إلها غير هذا المركز، وهو إله هذا المركز وآلاف مثله من المراكز، إنني بتجربتي الشخصية أعرف أن الله تعالى ينـــزل على عباده كلاما يشتمل على كثير من الأنباء الغيبية. لك أن تعتبر هذا المركز هو الإله، ولكننا نطلق اسم الإله على ذات عليم خبير، ونعرف أنه ذو القدرة؛ وذو الجلال؛ وذو الجمال؛ وذو العلم؛ وذو الحكمة؛ وذو البسطة؛ وهو محيٍ؛ مميت؛ حليم؛ مهيمن؛ وهاب؛ غفور؛ شكور؛ ودود؛ كريم؛ ستار... وله غيرها من الصفات الحسنى. فما دامت هذه الصفات غير موجودة في هذا المركز الذي تتحدث عنه، ومن ناحية أخرى إننا نتلقى الإلهام من ذات تتجلى بصفاتها على الدنيا من طريق كلامها.. ومع أن العالم كله يعارض كلامه ويخالفه فإن كلامه يتحقق.. فكيف يمكن بعد هذه التجربة الشخصية أن نقبل نظريتك؟

قال: إذا كانت هذه الأمور صحيحة صادقة فلا بد من اعتبار نظريتنا خاطئة، لأنه بعد وجود هذا الكلام والإلهام لا يمكن لنا القول بأنه ليس هناك إله يتحكم في هذا المركز وهذا الكون كله.

فبقوله"صبغة الله" ينصح الله الإنسان أن يكون مظهرا لصفاته، أو أن يصطبغ بصبغته وهذا هو الهدف والغاية من خلق الإنسان، وهذا هو المدار لنجاته وتقربه إلى الله تعالى.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٤٠)

التفسير: تقدم هذه الآية دليلا غاية في اللطافة والشفافية. يقول الله: قولوا: كيف نقبل قولكم بأن هدي الله منحصر في قومكم؟ لو قلتم هذا الكلام عن شيء لا نعرفه كانت هناك حاجة للبحث والتحقيق، ولكنكم تقولون لنا هذا عن رب هو ربنا وربكم، فكيف نقبل قولكم بأن النبوة لا يمكن أن تكون في غير بيت إسحاق؟ السؤال الحقيقي هو من الذي يرسل نبيا؟ وما دام الله هو الذي يرسله.. فلماذا تقولون هذه الأقوال التي لا تقبلها الفطرة الصحيحة؟ لأنه ربكم وربنا، لو كان ربكم أنتم فقط لَحُقَّ لكم أن تقولوا بأنه لا ينشئ صلة مع غيرنا، ولكنه ربنا وربكم، فكيف يمكن أن يتركنا ويتصل بكم فقط؟

وقوله تعالى (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) يبين ألا داعي للحسد في الدين، لأنه لا يمكن أن يسلب أحد ما كسبه غيره، وإنما ينال كل إنسان جزاءه بحسب أعماله هو نفسه. وسوف تنفعكم أعمالكم، وسوف تنفع هذه الأمة التي جاء فيها هذا النبي أعمالُها. ولسوف يكافَأ كل إنسان بقدر ما اجتهد، ولن تكون هناك معاملة بالنظر إلى شعبه وقومه.

وقوله تعالى (ونحن له مخلصون) يبين أن حبنا لله غير مشروط، ولا نقول إننا نؤمن به ونطيعه إذا أعطانا شيئا، وإنما حالنا أنه سواء أعطانا أو لم يعطنا فإننا وقْف له ومطيعون له، ولا نريد أي شيء أكثر من ذلك.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤١) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٢)

التفسير: في هذه الآية يذكر الله ادعاء اليهود أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده كانوا يهودا ونصارى. ويفنِّد القرآن هذا الادعاء بجواب بسيط، ولكنه بمثابة الذبح لهم. يقول إن إبراهيم وكل أبنائه وأحفاده مضوا في زمن قبل نزول التوراة والإنجيل. والتوراة التي يعتبرونها إلهامية تذكر هذا الأمر بكل وضوح.. يقول الله: لماذا تكذبون عمدا وتخفون الشهادات المذكورة في التوراة بكل وضوح.. مِن أن هؤلاء جميعا قد ماتوا قبل نزول التوراة، فكيف يمكن أن يؤمنوا بما لم يترل بعد، وكيف يمكن أن يكون هؤلاء قد آمنوا بموسى وعيسى؟

إن حمقهم هذا يماثل الحمق الذي بدا من القسيس وُود Wood في مناظرة معي، إذ قال لي مرة إن إبراهيم أيضا كان يؤمن بكفّارتهم، لذلك نجا. أو كحمق بعض الشيعة الذين يقولون بأن القرآن أيضا يقر بأن إبراهيم كان من الشيعة، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى(وإن من شيعته لإبراهيم)! (الصافات: ٨٤).

يقول القرآن هل نقبل ما تقولون أو ما تقوله كتبكم؟ تقول توراتكم إن إبراهيم كان قبل نزولها، أما أنتم فتقولون إنه كان يهوديا. ألا ما أشد حماقتكم!

والعجب أنه يوجد في هذا الزمن أيضا من يقولون إن إبراهيم كان يهوديا، فقد جاء:(Abraham was considered to have been the first a adherent of Judaism)أي أن إبراهيم كان أول المنتمين إلى اليهودية (دائرة المعارف البريطانية، تحت كلمة "اليهودية ").

وقوله تعالى (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم)...يعني أن هذه أمة قد مضت وخلت، فلماذا تشركونها في أخطائكم؟ هؤلاء مسئولون عما فعلوا، وأنتم مسئولون بأنفسكم عما فعلتم. فما الفائدة في أن تشركوهم في أخطائكم؟

عليكم أن تهتموا بأيمانكم، لأن إيمانهم لن ينفعكم شيئا، وكذلك لن تكون حسناتهم ذريعة لنجاتكم. وكأن هذه الآية تطرق نفس الموضوع الوارد في آيات أخرى تقول(ولا تزر وازرة وزر أخرى) (الأنعام: ١٦٥). لقد ذكر هنا نفس الموضوع بأسلوب آخر، ونبّه اليهود والنصارى ألا ينظروا إلى آبائهم بل إلى أعمالهم أنفسهم، ويفكروا في ما يفعلون وكيف يستحقون النجاة.

الترتيب والربط

في الآية (١٣٠) أشار الله تعالى إلى أنه بعد أن حُرم بنو إسحاق من نعمة النبوة أصبحتْ من حق بني إسماعيل، لأن إبراهيم دعا لهم أيضا، وكان هناك دعوة خاصة لسيدنا إبراهيم ببعث نبي من بني إسماعيل ذي شريعة.

ثم في الآيتين (١٣١و ١٣٢) قال الله تعالى لليهود ألاّ يرتكبوا الحماقة بالنكوب عن طريق إبراهيم الذي كان يَقبَل بكل ما يأتي من عند الله تعالى، فمن لا يسلك هذا الطريق يخسر.

وفي الآية (١٣٣) بيّن أن إبراهيم لم يكن بنفسه عاملا بهذا المبدأ فحسب، بل وصّى أولاده وأحفاده به، ونصحهم أن يكونوا دائما مطيعين لله تعالى، وكلما بعث مأمورًا دخلوا في حزبه.

وفي الآيتين (١٣٤و١٣٥) بيّن أن أولاد يعقوب (إسرائيل) تعهدوا على يده أنهم سوف يعبدون إلها واحدا ويكونون مسلمين له. فإذا كنتم بني إسرائيل حقا وجب عليكم أن تفوا بهذا العهد، وتكونوا مطيعين كما فعل يعقوب، ولن ينفعكم كونكم من أولاده، لأن كل إنسان مسئول عن أعماله.

وفي الآية(١٣٦) قال لا تتعنّدوا ولا تقولوا إن الإنسان لن ينجوا ما لم يكن يهوديا أو نصرانيا، بل عليكم أن تسلكوا المسلك الذي اتبعه إبراهيم.. أي أن يكون الإنسان مستعدا على الدوام لقبول ما ينـــزل من عند الله تعالى في أي زمن ولا يكترث للعوائق التي تحول دون ذلك.

وفي(الآية ١٣٧) خاطب المسلمين ونبّههم: سواء اتبع هؤلاء الملة الإبراهيمية أم لا..إلا أن واجبكم أن تعلنوا أننا نسلم بكل ما جاء من الله في أي زمن.

وفي الآية (١٣٨) بيّن أنه لو قبِل أهل الكتاب هذا المبدأ كما فعلتم نجوْا وإلا فسوف يُعاقَبون.

وفي الآية (١٣٩) أكّد على المسلمين أن يصطبغوا بالصبغة التي يريدها الله لهم، أي يختاروا اللون الذي يأتيهم به مأمور من عند الله تعالى.

وفي الآية (١٤٠) نصح المسلمين أن يقولوا لأهل الكتاب: أتجادلوننا في الله وتقولون لماذا اختاركم الله لكلامه؟ هذا فضل منه، وهو أعلم بأعمالنا وأعمالكم، فمن عمل بإخلاص نال الجائزة.

وفي الآية (١٤١) قال للمسلمين: اسألوهم إذا كانت النجاة في كوْن الإنسان يهوديا أو مسيحيا فما رأيكم في إبراهيم وأبنائه وأحفاده.. هل كانوا يهودًا أو نصارى؟ كلا، لأن هؤلاء جاءوا قبل نزول كتبكم السماوية.

وفي الآية (١٤٢) بعد أن أقام الحجة عليهم قال: إن هذه الأمة من الأنبياء قد مضوا في زمانهم، فلا أعمالهم تنفعكم، ولا تَعَرُّض المسيح للأذى ينجيكم. إنما تُسألون عن أعمالكم فيجب أن تهتموا بما تقومون به من أعمال.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِن النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِم الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٤٣)

شرح الكلمات:

السفهاء – جمع سفيه، والسفه: خفة الحلم؛ الجهل؛ الخفة؛ الحركة؛ الاضطراب (الأقرب). فالسفيه قليل العلم؛ قليل العقل؛ المعترض بدون تفكير في الكلام؛ السطحي العقل؛ الذي لا ثبات عنده.

القبلة –الجهة؛ كل ما يُستقبل من شيء (الأقرب).

عليها- التي كانوا عليها أي التي كانوا يعتقدون بأنها قبلتهم.

التفسير: من أسلوب القرآن أنه إذا أراد بيان شيء هام فلا يصدر حكمه فيه فورًا، وإنما يذكر قبله بعض الأمور كتمهيد لتتضح أهميته للناس وتستعيد قلوبهم لقبول

الأمر الإلهي ببشاشة، وتستعد أنفسهم لإحداث تغير بحسب هذا الأمر، ولا يقعوا فريسة للابتلاء إلا في نطاق ضيق. ذلك لأن هدف القرآن أن يهدي الناس ويوقفهم على الحِكم في تعاليمه أيضا، إذ ذكر أولا أن الصيام كان مفروضا على الأمم السابقة أيضا، والصوم يولد التقوى، وبعد هذا التمهيد قال إن الصيام قد فُرض عليكم. وهنا أيضا قبل الأمر بتحويل القبلة أعدَّ طبائع الناس لهذا، وأشار إلى الانقلاب القادم قائلا(سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها)..أي أن الذين لا يفكرون في حِكم الأوامر ويعترضون بدون تروٍّ، سوف يثيرون اعتراضا، ورغم كون هذا الاعتراض لغوا تافها للغاية إلا أنهم سوف يكرِّرونه ويقولون: ما الذي حوَّل المسلمين من قبلتهم السابقة التي كانوا عليها؟ لم يكن قد صدر بعد أي أمر بأن يحول المسلمون وجوههم إلى الكعبة المشرفة في الصلاة، ومع ذلك وقبل إنزال هذا الأمر بيّن أنه سوف ينـــزل أمرٌ بتحويل القبلة عن قريب، وبسببه سوف يثور الناس ممن هم قليلو العلم والعقل أو مثيرو الأسئلة بدون تروٍّ، ولكن عليكم ألا تحزنوا ولا تخافوا من اعتراضهم..لأن الله سوف يبتليكم في إيمانكم بإنزال أمر جديد في شأن القبلة.

والسين" في كلمة "سيقول "للتوكيد والاستمرارية التي تشمل زمن الاستقبال أيضا. وهناك كلمة أخرى للاستقبال هي "سوف"، ولكنها للزمن البعيد، أما "السين فهي للمستقبل القريب. لم يكن هذا الاعتراض في الماضي وفي ذلك الزمن فقط، ولكن لا يزال الكتاب المسيحيون –مثل وِيري وسِيل وغيرهما– يثيرونه قائلين إن محمدا عندما كان في مكة كان يتجه في صلاته إلى الكعبة، ولكنه عندما جاء إلى المدينة اتجه إلى القدس استرضاء لليهود (تفسير القرآن لويري تحت هذه الآية).. مع أن هذا الاعتراض خطأ تماما.

يظن بعض الناس أن القرآن الكريم في قوله تعالى (سيقول السفهاء) اعتبر المعترضين على تعاليمه من السفهاء وهذا كلام قاس لا يليق به. ولكن هذا الاعتراض أيضا ليس صحيحا لأن الله تعالى لم يقل إن مخالف هذا التعليم سفيه.. وإنما اعتبر من يعارضون العقل الصريح من السفهاء، وقد قدّم على ذلك دليلا لا يبقى لأحد بعد

معرفته أي شك ولا شبهة في سفههم وحمقهم؛ كما يدعوهم إلى استخدام العقل ويحاول إقناعهم بالدليل، والذي يحاول إقناع الخصم بالأدلة لا يقال عنه إنه يستخدم كلمات قاسية معه، ولكان من القسوة إذا كان هذا الأمر خلافا للحقيقة أو كان مجرد استهزاء بالخصم، ولكن ما دام القرآن يقنع الخصم بالأدلة، و لم يقل إنه سفيه بسبب معارضته لتعليمه وإنما بسبب مخالفته لصريح العقل، فلا يصح الاعتراض على ذلك. ولو كان هذا مثار اعتراض فمعنى ذلك ألا يلام أحد مهما ارتكب من الحمق، بل يجب أن يُشاد بعقله وتدبره وحكمته!! وهذا ما لا يقول به أحد قط. وإذا كان القرآن قد اتخذ نفس الموقف فما المبرر للاعتراض عليه؟

على أية حال، ففي وقت لم يكن المسلمون يعرفون متى وإلى أين سوف يؤمرون بالاتجاه، كان الله العليم الخبير يعرف أن الناس سوف يعترضون عليهم، وسوف يقع ضعفاء الإيمان في الابتلاء، وقبل أن يعترضوا عليهم، بل قبل أن يؤمروا بتحويل القبلة رد الله اعتراض المعارضين وقال (قل لله المشرق والمغرب)..أي أن القضية المهمة هي عبادة الله، فأينما يأمر الله بالاتجاه فعلى الإنسان أن يتجه إليه لينال رضى الله تعالى. فإنْ أمر بالاتجاه إلى الشرق فيتجه إلى الشرق، وإذا أمر بالاتجاه إلى الغرب، فإلى الغرب. فالاعتراض على تحويل القبلة ولماذا لم يأمر بالاتجاه إلى كذا وكذا..كل ذلك من الجهل المطبق.

وبالنسبة لله فالشرق والغرب سواء. وإذا عُينت جهة فليس لأن الله في الشرق أو الغرب،بل لهذا التعيين حِكم أخرى..من أهمها الوحدة. فلو لم تُتخذ جهة معينة للصلاة لاتجه المسلمون إلى الشرق، وبعضهم إلى الغرب، وبعضهم إلى هنا وهناك، و لم يكن لهم أي نظام أو وحدة. فلإقامة الوحدة بينهم ولتسوية صفوفهم أمرهم الإسلام بالاتجاه إلى جهة واحدة. أما إذا لم يعرف الإنسان جهة القبلة وهو في القطار أو الطائرة وما إلى ذلك فله أن يتجه في الصلاة إلى أي جهة، مما يدل على أن الاتجاه إلى جهة خاصة ليس مطلوبا لذاته..ولكن المطلوب هو النظام وخلق الوحدة بين المسلمين.

وهناك سبب آخر هام لتعيين بيت الله قبلة العالم وهو أن إبراهيم كان دعا ربه أن يبعث من أهل مكة رسولا عظيما، ويكون سبب هداية للعالم كله.. وتظهر على يده آيات سماوية، ويأتي من الله بشريعة كاملة، ويبين أسرار وحِكم الشرع، ، ويقوم بتزكية النفوس. يتطلب هذا الدعاء الإبراهيمي أن يكون ذلك النبي العظيم وأتباعه على صلة وثيقة ببيت الله الواقع بمكة حتى إذا اتجهوا إليه في صلاتهم تذكروا ذلك الدعاء الإبراهيمي الذي دعا فيه ببعث محمد ﷺ. فعندما يقف الإنسان في الصلاة قائلا "الله أكبر" متوجهًا إلى بيت الله الحرام..يتجه فكره فجأة إلى ذلك الدعاء الإبراهيمي، ويرى من واجبه أن يوجه الناس إلى آيات الله نيابة عن الرسول ﷺ، ويعلمهم علم الكتاب، ويبين لهم الحِكم وراء الأوامر الإلهية ويحاول أن يطهرهم. ولا يمكن أن يخطر بباله هذا الهدف العظيم الشأن ولن يتولد في قلبه هذا الحماس الشديد إذا ما اتجه إلى لندن أو نيويورك أو باريس، بل يفكر عندئذ في الرقص والغناء، ولن يفكر في العبادة والصلاح والتقرب إلى الله. ومما لا شك فيه أن الله في كل مكان، ولا يمكن لنا القول بأنه في الجزيرة العربية وليس في أمريكا، أو أنه في مكة وليس في أفريقيا، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن ببعض الأماكن والأشياء عوامل تذكِّر الإنسان وتوجهه إلى الله بصورة غير عادية. لذلك عيّن الله الكعبة المشرفة قبلة للصلاة، وإلا فإن الله أسمى من أي تجسُّد، وأبواب قُربه مفتوحة لكل إنسان في العالم.

وهناك من يعترض فيقول: هذه الكلمات (لله المشرق والمغرب) عندما وردت في قوله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) (البقرة: ١١٦)..فسِّرت بمعنى أن لكم أن تتجهوا إلى أي جهة، بينما اتخذتم نفس الكلمات هنا مبررا لتحويل القبلة..فكيف يُستدل من كلمات واحدة استدلالان متضادان؟

إن هذه الكلمات لم تستخدم من قبل لتكون رفضًا لتعيين قبلة، ولم تُستخدم الآن لتبرير تعيين قبلة ما، بل وردت هذه الكلمات في المرة الأولى (آية ١١٦) بمعنى أن كل شيء من الله تعالى، وسوف يجعلكم حكاما على الشرق والغرب في يوم من الأيام، وسوف يعطيكم من فضله كل شيء. أما هنا فأخبر الله بها أن المقصود

الحقيقي ليس القبلة حتى يُعترض عليها، وإنما الهدف الحقيقي هو طاعة الله تعالى؛ فأينما يأمر الله بالتوجّه فالتوجّه إليه يكسب الإنسان رضا الله تعالى.

والجواب الثاني هو أن الآية الأولى (١١٦) كانت نزلت بالمدينة عندما كانت القبلة قد تعينت حتى في رأي الخصوم أيضا، فكيف يمكن أن يقول القرآن إنه لا حاجة للتوجه إلى قبلة معينة وقت الصلاة، فلا يصح أن يعترض أحد: إذا لم تكن القبلة هدفا مقصودا فلماذا عُينت؟ فمثل ذلك مثل المجتمعين للمشورة.. فاجتماعهم في مكان معين ليس هدفًا، ولكنهم بحاجة لتعيين موعد ومكان معين للتشاور.كذلك وإن لم تكن القبلة هي الهدف الحقيقي فإن الله تعالى عيّن للمسلمين جهة محددة لتوحيدهم وتسوية صفوفهم. وإذا لم يكن المصلي يعرف جهة القبلة أثناء سفره، أو يعرف جهتها ولكن بعد أن بدأ الصلاة انحرفت مطيته من حيوان أو قطار أو سفينة أو نحو ذلك عن جهة القبلة فلا يفسد ذلك صلاته ولا ينقض منها شيئا. وهذا دليل على أن الاتجاه إلى جهة معينة ليس مقصودا في ذاته، وإنما عُينت جهة خاصة للاتحاد والنظام وتسوية صفوف المصلين.

قوله تعالى (يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)..أشار بكلمة (صراط مستقيم)إلى أن التعاليم السماوية تختلف بعض الشيء باختلاف الزمن، لأن من سنة الله أنه عندما يتفضل على قوم فإنه يرسل إليهم تعاليم مناسبة لحالهم. وكانت الكعبة قبلة مناسبة للمسلمين لذلك حوَّلهم الله إليها في آخر الأمر، والذين خضعوا لمشيئة الله منقادين لإرادته، ورأوا أن واجبهم اتباع الصوت السماوي، وأن يبقوا أسمى من حدود التقيد بالشرق والغرب..وفقهم الله لطاعة مخلصة لدرجة أنهم توجهوا إلى بيت الله بمجرد أن توجه إليه محمد المصطفى ﷺ، واستمروا يجرون في الصراط المستقيم.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالْناسِ لَرَءوفٌ رَحِيمٌ(١٤٤)

شرح الكلمات:

أمة وسطا-الشيء الوسط هو الذي يكون على حد الاعتدال وهو الأفضل، وكذلك القادة الكبار يكونون في وسط الجيش تحيط بهم الكتائب، وذلك لأن الشيء الأفضل والأغلى يحافَظ عليه. ومن هنا تكون كلمة الوسط بمعنى الأعلى والأفضل. والوسيط هو أشرف القوم. ولما لم تكن الأمة المحمدية في وسط الأمم زمنا، ولم تكن أدنى منها تعليما وشرعا، بل قال الله عنها (كنتم خير أمة أخرجت للناس)(آل عمران: ١١١)..أي أنكم خير الأمم التي خُلقت لفائدة الناس، ولذلك يكون معنى "الوسط" الأعلى والأكمل.

شهداء- الشهيد: الشاهد؛ الأمين في الشهادة؛ القتيل في سبيل الله؛ العالم الذي لا يغيب عن علمه شيء.ومن معاني شهد: عايَن (الأقرب).

كُنْتَ-كان تأتي بمعنى "وُجد" وبمعنى "صار"، ومن هنا تعني الآية: لم نعيِّن القبلة التي كنت عليها من قبل، أو التي تحولتَ إليها الآن وتثبَّتَّ عليها، فكأن أحد المعنيين يشير إلى القبلة التي كانت قبل التحويل، والمعنى الثاني يشير إلى القبلة التي كانت بعد التحويل.

لنعلَم- عَلم: أدرك وعرف. ومن أساليب اللغة العربية وضع السبب مكان المسبِّب أحيانا؛ أي يضعون الشيء الذي هو سبب لشيء آخر في مكان النتيجة، وأحيانا أخرى يعكسون أيضا. وهنا جاء السبب مكان المسبب، لأن نتيجة العلم هو التمييز ومعرفة الشيء أهو خير أم شر. ولما كان التمييز ينتج من العلم لذلك وضعوا العلم مكان التمييز؛ وذلك أيضا لبيان أن التمييز لا يقع إلا بالعلم (البحر المحيط تحت هذه الآية). وهناك أمثلة كثيرة لهذا الاستخدام في القرآن الكريم وكتب اللغة، فمثلا ترد

كلمة "السماء "بمعنى "السحاب أيضا، لأن السحب تتكون بسبب الارتفاع وأشعة الشمس، ولما كانت السماء سببا لتولد السحب أطلقوها على السحب في بعض الأحيان.

فمعنى قوله تعالى (لنعلم) هو أننا فعلنا ذلك لتمييز الذين يتبعون الرسول من الذين يعرضون عنه.

اعتبرنا (لنعلم) بمعنى (لنميّز) لأنه إذا وردت كلمة "علم " مع صلة "من" فتعني التمييز. وقد كتب أئمة اللغة أن العلم لا يتعدى بـــ "مِن" إلا إذا أريد به التمييز لأن التمييز هو الذي يتعدى بِمِن (المرجع السابق).

ومن معاني العلمِ الإظهارُ والبيان، وهذا المعنى لا يوجد في القواميس العامة، ولكن الذين كتبوا القواميس للقرآن الكريم ذكروا هذه المعنى الذي يتأكد من القرآن الكريم نفسه. فقد جاء(قد علِمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) (الأحزاب: ٥١). ويمكن القول بصورة قطعية إن العلم هنا يعني الإظهار والبيان. إذ لا يقال "علمتُ ما قلتُ وما قمتُ به"، فمثلا لا يقال: إنني أعلم أنني بالأمس ذهبتُ إلى موضع كذا، ولو قال أحد هذا لضحك عليه السامعون واعتبروا قوله حمقا. ولو اعتبرنا معنى (قد علمنا ما فرضنا) أننا وصلنا إلى علم ما قد فرضناه، فلن يكون الكلام سليما، لأن العلم يتعلق بشيء آخر. فالمعنى أن ما فرضناه قد أظهرناه وبيَّناه. هذا، ولا يمكن أن تفسَّر العبارة بطريقة أخرى. ونفس الحال بالنسبة للآية الحالية (إلا لنعلم)أي لنظهر ونميز.

رءوف–الرأفة والرحمة معناهما واحد تقريبا، والفرق بينهما أن الرأفة خاصة والرحمة عامة. والرأفة تشير إلى دفع الشر، والرحمة تشمل دفع الشر وإيصال الخير. فالعاطفة التي تتولد لرؤية أذًى يصيب أحدا تتولد بسبب الرأفة، وكذلك بسبب الرحمة، ولكن الفرق أن الرحمة تتعلق بالإحسان أكثر، والرأفة تتعلق بدفع الشر أكثر.

التفسير: هناك سؤال: إلام يشير قوله تعالى "كذلك"؟

قال الله قبل ذلك (يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)... أي أن الله هو الذي يهدي، وقد هداكم بفضله، ولا يحق لأحد أن يعترض على ذلك؟ وكلمة (كذلك)

تشير إلى هذا..أي كما أنه هداكم ووفقكم للسير على الصراط المستقيم كذلك أسدى إليكم معروفا آخر إذ جعلكم أمة وسطا.

وكما جاء في شرح الكلمات فإن الوسط يعني المتوسط، ولكن الأمة المحمدية ليست متوسطة.. لا من حيث الزمن ولا من حيث التعليم والشرع ولا الدرجة. إنها ليست أمة متوسطة زمنا لأنها لن يكون بعدها إلى يوم القيامة أي أمة أخرى، فهي يمكن أن تسمى الأمة الآخرة، لا الأمة المتوسطة. ثم إنها ليست بالأمة المتوسطة شرعا أيضا، لأنه بعد النبي ﷺ لا يمكن أن يأتي شرع جديد. ثم إن القرآن آخر التعاليم، ومن هذه الناحية أيضا فهو ليس متوسطا..بل إن القرآن نفسه يقول (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) (المائدة:٤). ثم من حيث الدرجة والمكانة فليست هذه الأمة أمة متوسطة، لأنها أفضل الأمم وخيرها كما ورد (كنتم خير أمة أخرجت للناس)(آل عمران ١١١).

فلا تعني "أمة وسطا"أنها أمة متوسطة..لا زمنا، ولا شرعا، ولا تعليما، ولا مكانة..وإنما المعنى أنها من حيث الأعمال أمة ذات سلوك وسط..أي معتدل لا تميل إلى الإفراط ولا تجنح إلى التفريط، بل إن أعمالها تبقى معتدلة ككفتي الميزان، وليس هناك جانب من عملها منحرف عن حد الاعتدال. لذلك يعلم الإسلام أن يكون المسلم في جميع أعماله ذا سلوك وسطي، لا يميل إلى ناحية مهملا النواحي الأخرى. لو مال إلى ناحية وركز عليها فإن عواطفه الطبعية سوف تثور وتخرج عن حدودها. فمثلا لو أنه ترهَّب لكانت النتيجة الحتمية ألا يستطيع التحكم في عواطفه الشهوانية، فيترك طريق الحلال ويقع في الحرام. كذلك لو أنه فرّق كل أمواله على الناس ولم يُبق شيئا لحاجات أولاده وأهله ما سُدَّت حاجاتهم بهذا الفعل، فلا بد أن يضطر للتسول، وهذا في حد ذاته عمل غير مستحب، أو يلجأ إلى السرقة والخيانة..وبدلا من أن يرتقي في الخيرات يقع في الإثم. فالإسلام – باعتباره الأمة المحمدية أمة تتمسك بالاعتدال في كل أعمالها–سدّ في وجهها كل طرق الإثم. وقد أشير بقوله تعالى (أمة وسطا) إلى هذا التعليم الإسلامي الوسط مما

يميزه عن سائر الأديان كلها. وهذا الأمر وحده يكفي ليثبت فضله على الأديان الأخرى.

قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس)أي فعلنا ذلك لتكونوا شاهدين على الأديان والأمم الأخرى. فكما أن شهادة الشهادة تثبت ما هو الحق، ولمن الحق..كذلك العاملون بتعاليم القرآن الذين يحدثون في أنفسهم تغيرات صالحة سوف يكونون بمثابة شاهدين على صدق القرآن للأمم الذين لم يعرفوا لذة صدق القرآن..أي أنهم بلسانهم وعملهم سوف يعلنون أنهم قد وجدوا دعاوى القرآن صادقة، وبرؤية حياتهم الطاهرة وما ينزل عليهم من نصرة سماوية يدرك الناس أن الطريق الصحيح هو ما يسلكه هؤلاء.

ثم قال: كما أننا جعلنا المؤمنين العاملين بالقرآن شاهدين للأمم الأخرى على صدق القرآن، كذلك جعلنا رسول الله شاهدا على لهذه الجماعة المسلمة على صدق الإسلام.. بمعنى أنه برؤية معجزاته ونصرة الله له يتمكن صدق الإسلام بصورة كاملة في قلوب هؤلاء.

فمعنى الآية أننا فعلنا ذلك ليهتدي الناس برؤية هذه المعاملة الإلهية الإعجازية معكم، وبرؤية روحانيتكم وتقواكم. ومن ناحية أخرى يكون هذا الرسول شاهدا حيا على صدق الإسلام بالمعجزات العديدة والنصرة الإلهية النازلة عليه كالمطر. تكونون للدنيا شاهدين على صدق الإسلام، ويكون الرسول شاهدا أمامكم على ذلك.

ويمكن أن يعني قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) أن الرسول ﷺ يعلمكم الإسلام وتقومون أنتم بتعليمه الناسَ باستمرار.

الحق أن الله تعالى قد بين في هذه الآية كيف تكونون أفضل الأمم.. وهي أن تكونوا شهداء على الناس، أي ألاّ تنقطع فيكم أبدا سلسلة التعليم والتربية، وأن

تحاولوا دائما تقوية إيمان الناس. لذلك قال: جعلناكم أمة وسطا لتعلِّموا الناس وتكونوا رقباء عليهم، ومن واجب الرسول أن يعلمكم ويزيل ضعفكم وعيوبكم.

والحقيقة أنه كما يجتمع في جسم الإنسان بعد فترة بعض الفضلات الزائدة التي تظهر أحيانا في صورة إمساك وأحيانا في صورة إسهال، أو كما أن ماء المطر يتراكم على السقف ويفسده بسبب فساد أنابيب التصريف، كذلك تمامًا تتعرض الأمم في مختلف الأوقات إلى مثل هذه الأحوال. وكما أن الإنسان الحي لا يستطيع أن يؤدي كل أعماله بصحة عضو واحد من جسمه بل لا بد له من مراقبة سلامة أعضائه صباح مساء.. كذلك لا تنصلح أخلاق الأمم تلقائيًا، بل لا بد من مراقبتها مراقبة دائمة. والعجيب أن الشخص الفرد الذي لا تساوي حياته إزاء حياة شعب شيئا.. يرون من اللازم لحياته أن تراقَب احتياجاته صباح مساء، ولكنهم لا يهتمون بمراقبة حاله القوم. كل يوم، يفكرون ماذا يأكلون في الصباح، وماذا يطهون في المساء. في الحر ينامون في الخارج، وفي البرد ينامون في الداخل. يحسرون رؤوسهم في القيظ، ويغطونها عند البرودة. يجتنبون حرارة الشمس فيمشون في الظل، ويستترون تحت المظلة من المطر. يهتمون بكل هذه الأمور صباح مساء، بل إن الإنسان يفكر في حاجة جسمه بضع عشرة مرة في اليوم الواحد. فمرة يفكر في النوم، ومرة في الاستلقاء والراحة، وأحيانا في الرياضة والنزهة، وأخرى في الاستحمام. ولكنه لا يفكر ولا يعتني بإصلاح الشعب، بل يظن أنهم سوف ينصلحون بأنفسهم. لو أن الشعب سار خطوة خاطئة..فبدلا من أن يلوم المرء نفسه ويعترف بأنه لم يؤد واجباته تجاه الشعب.. يظن أنه يكفيه التعبير عن سخطه على الشعب، ولا يحاول إصلاحهم بالعمل أبدًا. ولكن هذا الموقف ليس صحيحا. إن إصلاح الشعب يتطلب اهتماما أكثر من إصلاح الفرد، ويتطلب عناية من كل فرد في الشعب. لو أن كل فرد لم يولِ اهتماما بمسائل الشعب فلا بد أن تحدث التقصيرات والنقائص في بعد الأمور، سوف تتفاقم حتى لن تبقى إزالتها في يد الفرد بل في يد الشعب كله. ومما لا شك فيه أن الإسلام قد أقام الخلافة لاستمرار النظام

وتوطيده، ولكن من الخطأ الظن أن واجب الخلافة أن تقوم بكل الأعمال وحدها.. مع أن هذا ليس واجب الخلافة وحدها، كما لا يمكن أن يقوم شخص واحد بإصلاح القوم بهذه الصورة. ما لم يكن عند كل فرد من الشعب روح وإحساس بالإصلاح القومي، وما لم يساهم كل فرد في إصلاح القوم لا يمكن أن تنجح عملية الإصلاح بصورة مرضية. إنني أرى لو أن المسلمين عملوا بهذا الأمر القرآني، واهتموا بتبليغ الهداية جيلا بعد جيل، وأدّوا واجب مراقبة حال الناس بصورة صحيحة.. لم يصبهم الدمار والهلاك أبدا. والآن من واجب جماعتنا أن يتذكروا هذا الدرس ويسعوا دائما لإصلاح الأجيال القادمة.

ينصح الله المسلمين هنا أن من واجبكم أنتم أن تنتفعوا من الفيوض الروحانية لمحمد ﷺ، فتكونوا هداة لأمم العالم، ومن ناحية أخرى فقد جعلنا محمدا رسول الله مراقِبا ومحافظا عليكم حتى إذا تطرق إليكم فساد بادر إلى إصلاحه.

الواقع أنه بقدر ما يكون الرسول أفضل بقدر ما يوهب من الله أمة أفضل. لو كان الرسول من الدرجة العليا وكانت أمته ناقصة لكان هناك خطر تبديد طاقته. لذا من المستحيل أن يبعث الله رسولا ولا يعطيه أمة بحسب قواه وطاقاته. لقد أُعطيَ موسى قوما بحسب قواه وطاقاته، وأُعطيَ محمد أمة بحسب قواه وطاقاته. والمثال الواضح لذلك هو أن أمة موسى –عليه السلام– قالت له في مناسبة حرجة جدا: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) (المائدة: ٢٥)، ولكن عندما استشار الرسول ﷺ أمته في يوم بدر فقال أحد صحابته: (لا نقول لك كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك(البخاري، المغازي). وفي رواية: (لو استعرضْت بنا هذا البحر فخضته لخضْناه معك) (السيرة النبوية لابن هشام، غزوة بدر)، وفي رواية: (لن يخلص إليك العدو ما لم يطأ جثثنا الهامدة)

والحق أن هذا الصحابي كان يتكلم بلسان أمة محمد كلها. لم يكن هذا الصوت صوته وحده، وإنما كان صوتا جماعيا، ويرتفع من لسانه نيابة عن كل الأمة.. مما

أبرز روح الفدائية والتضحية عند الصحابة واضحة كالنهار. هذا الفرق بين أمة محمد وأمة موسى إنما كان لأن موسى كان محدود الزمن ومحدود القوم، وجاء لإزالة نقائص محدودة. أما الرسول ﷺ..فقد كانت بعثته للعالم كله، وكان عصره الروحاني ممتدًا إلى يوم القيامة، وكان عليه أن يزيل النقائص من الناس إلى يوم القيامة. فالجماعة التي وُهبت للرسول ﷺ لم توهب لموسى، لذلك خاطب الله المسلمين: إننا جعلناكم أمة من الطراز الأول، لكي تكونوا شهداء على الناس رقباء عليهم، ويكون الرسول شهيدا عليكم.. أي أن تتم تربيتكم تحت رعاية هذا الرسول، ويتم إصلاح الدنيا تحت رقابتكم..لأن الشخص الواحد لا يمكن أن يبقى في الدنيا إلى الأبد.

وإنما جُعل المسلمون خير الأمم لأن كفاءة محمد اقتضت أن تكون أمته من الطراز الأول، وإلا لم تتحقق الغاية من بعثه. فكان من الضروري أن تكون الأمة المحمدية خير الأمم ليتشرّبوا تعليم الإسلام الأسمى فيصلحوا به العالم. ولو لم تتوافر فيهم هذه الكفاءات ما تحقق هدف إصلاح الخلق.

وفي هذه الآية أيضا دليل على بعث المأمورين في الأمة المحمدية. إذ يتضح منها أن هذه الأمة قد أقيمت لإيصال فيوض محمد المصطفى ﷺ وبركاته إلى الناس دائما. ولما كان هناك خطر من أن يصبح المسلمون أنفسهم غافلين عن هذه الفريضة في زمن ما.. فقال إنه عندما تتوقف هذه الفيوض من الوصول إلى الناس بسبب سوء أعمال المسلمين، فإن محمدا ﷺ سوف يأتي بنفسه إلى الدنيا شهيدا عليها. بمعنى أنه عندما لا تستطيع الأمة المحمدية مراقبة الآخرين وإصلاحهم، بل ستكون هي بحاجة إلى الإصلاح.. فإن هذا الرسول يأتي لإصلاحها. لذلك أخّر الله قوله (ويكون الرسول عليكم شهيدا)عن قوله (لتكونوا شهداء على الناس)، ولو كان هذا الذكر خاصا بزمن النبي ﷺ لعكس الترتيب.. لأن النبي قام بتعليم الصحابة أولا، ثم علم الصحابة الآخرين. ولكن ترتيب الآية يبيّن بوضوح أن (شهادة الرسول) لا تتعلق بالبعثة الأولى للرسول وإنما المراد منها البعثات البروزية الأخرى له ﷺ. والمعنى أنه

عندما يتطرق الخلل إلى رقابة الأمة المحمدية على الآخرين، ولا يكون سلوكهم مثاليا.. يأتي رسول الله مرة أخرى شهيدا ورقيبا على العالم، وسوف يقوم بتربية المسلمين مرة أخرى ليكونوا أهلاً لتربية الآخرين.

كما يبين قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) أن المذكورين هنا ليسوا أولئك الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ وحدهم، وإنما المراد الجميع حتى يوم القيامة، وسوف يتحقق قول الله هذا وتبقى الأمة المحمدية شاهدة على العالم إلى آخر الدنيا.. كما يبقى الرسول شاهدا على الناس إلى يوم القيامة. ولما لم يكن الرسول ﷺ ليعيش بجسده المادي إلى الأبد..لذلك فإن هذه الآية تشير إلى بعثته البروزية، وتبين أن هذه الأمة المحمدية قد أقيمت لإصلاح الآخرين، ولكن عندما يتطرق الفساد إليها نفسها..فلن يصلحها عندئذ رسول من الخارج، بل إن محمدا نفسه بطريقة بروزية سوف يقوم بإصلاح أمته، وسوف يستمر هذا الأمر هكذا إلى يوم القيامة.

وتشكل هذه الآية دليلا على كون الإسلام دينا عالميا، لأنه لو لم يكن كذلك و لم يكن ليبقى إلى يوم القيام لم يبعث الرسول لإصلاح الخلق بطريقة بروزية.

قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كانت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه). كان النبي ﷺ قبل التوجه إلى الكعبة يتجه إلى بيت القدس في صلواته، و لم يزل هكذا طيلة حياته المكية لثلاثة عشر عاما وبضعة عشر شهرًا بعد الهجرة إلى المدينة. وأخيرا..بينما كان يصلي بالناس في مسجد بني سلمة نزل عليه الوحي في شأن تحويل القبلة. فحول وجهه وهو في حالة الصلاة نحو بيت الله الحرام، واتجه الصحابة معه من اتجاه بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة.

وقد قال البعض إن النبي ﷺ وهو في مكة المكرمة كان يتجه إلى الكعبة في صلواته، ولكنه عندما قدم إلى المدينة توجه في صلاته إلى بيت المقدس (البحر المحيط، قوله تعالى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها)...وهذا غير صحيح.

لقد استغل المؤرخون المسيحيون هذه الفكرة واعترضوا بناء عليها أن محمدا كان يريد إرضاء اليهود بالاتجاه إلى بيت المقدس، ولما لم يفُز برضاهم اتجه مرة أخرى إلى الكعبة. كتب المستشرقان ويري وسيل أن محمدا عندما جاء إلى المدينة توجه إلى بيت المقدس لإرضاء اليهود كي يؤمنوا به، ولكنه عندما لم ينجح في مكيدته هذه قال تعالوا نتجه إلى قبلة آبائنا الأصلية مرة أخرى (تفسير القرآن لويري تحت هذه الآية)، ولكننا عندما ننظر إلى الأحداث التاريخية يتأكد خطأ هذه الفكرة. فمن الثابت تاريخيا أن النبي ﷺ كان مأمورا بالتوجه إلى البيت المقدس في صلاته عندما كان في مكة، وطبقا لهذا الأمر الإلهي كان يتجه إلى بيت المقدس قبل هجرته أيضا، وليس بعد هجرته إلى المدينة إرضاء لليهود كما يقولون. لم يكن في مكة أي يهودي ليرضيه النبي، وإنما كان يحيط به المشركون من كل النواحي. نعم هناك روايات تذكر أنه ﷺ كان – وهو في مكة- يقف للصلاة في موضع بحيث يتجه منه إلى الكعبة المشرّفة وبيت المقدس معا، ولكنه عندما هاجر إلي المدينة لم يكن ذلك ممكنا، لأن أورشليم تقع إلى الشمال من المدينة في حين تقع مكة إلى الجنوب منها. وعندئذ أمره الله تعالى أن يبقى متجها إلى بيت المقدس. وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أن رسول الله كان مأمورا باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين..فتكون الكعبة بين يديه وهو مستقبل صخرة بيت المقدس. فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس (تفسير ابن كثير، تحت هذه الآية).

وهذا يبين أنه ﷺ عندما كان في مكة يرى أن بيت المقدس هو القبلة الأصلية، إلا أنه كان يتجه إليه بحيث تكون الكعبة أمامه، ولكن هذا كان يمثل فائدة ضمنية، والهدف الحقيقي هو التوجه إلى بيت المقدس. ولكن عند وصوله إلى المدنية تغير الوضع الجغرافي واستحال عليه ﷺ التوجه إلى بيت المقدس والكعبة في وقت واحد. فعندئذ اتجه إلى بيت المقدس فقط.

فليس صحيحا أنه عندما جاء إلى المدينة أمره الله تعالى أن يتجه إلى بيت المقدس بعد أن كان مأمورا أن يتجه إلى الكعبة في البداية.. لأن مثل هذا الأمر ليس ثابتا. وإذ استنتج أحد من توجه النبي ﷺ إلى بيت المقدس وبيت الله الحرام معا وهو في مكة أن هذا يعني أن الكعبة كانت هي القبلة الأصلية عنده، فاستدلاله ليس صحيحا. إنه ﷺ كان يعتبر بيت المقدس قبلته الحقيقية، ولكنه كان يتجه إليه بحيث يكون بيت الله أمامه أيضا.

ومن الخطأ أيضا ما اعترض به المستشرق (سيل) بأن النبي كان في مكة يتجه إلى حيث يشاء.

ومما يبطل اعتراضهم الأول أن النبي ﷺ عندما اتجه نحو الكعبة في الصلاة تعرض لاستهزاء اليهود إذ قالوا للمشركين: اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دينكم (البحر المحيط، تحت هذه الآية). وتؤكد هذه الرواية بكل وضوح أن النبي ﷺ كان يتجه في صلواته إلى بيت المقدس وهو في مكة، ولو أنه كان يتجه إلى الكعبة عندئذ لم يعترض عليه اليهود قائلين إنه يرجع شيئا فشيئا إلى دين أهل مكة... وإنما يصح اعتراضهم فقط إذا كان يتوجه من قبل إلى بيت المقدس لا إلى بيت الله الحرام.

وعلاوة على ذلك يجب النظر فيما إذا كان في هذا التغيير بالفعل مصلحة شخصية. يقول المعترضون إن هذا التغيير كان لإرضاء اليهود أولا ثم لإرضاء أهل مكة. ولكن القرآن يقول إن هذا التغيير كان ابتلاء كبيرا للناس. لم يكن أمرا عاديا أن يأمر الله في مكة أن يتجه أهلها إلى بيت المقدس، ثم في المدينة —حيث كان لليهود والنصارى نفوذ، وكان المشركون أيضا متأثرين بهم — يأمر الله تعالى أن يتجهوا إلى بيت الله في مكة. ولو كان أمرا عاديا لم يقل الله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) فهذه الآية تؤكد أن الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس كان ابتلاء كبيرا. وهذا هو الحق. فنظرا لما يكنّه أهل مكة من تعظيم للكعبة المشرفة.. حتى أنهم كانوا لا يتعرضون لقاتل يلوذ بها.. يمكن

تفهُّم ما كان في الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس من ابتلاء كبير لهؤلاء. وكان هناك ابتلاء ثانٍ كبير في المدينة حيث كان لليهود نفوذ كبير.. عندما صدر الأمر الإلهي بالتوجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس. لذلك يعتبر القرآن الأمرين ابتلاء. فقال عن الأمر الأول بتحويل القبلة (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه)، وقال عن الأمر الثاني بتحويل القبلة (سيقول السفهاء من الناس ما ولهم عن قبلتهم التي كانوا عليها...). يتبين من ذلك أن في كلا الحادثين ابتلاء كبيرًا، وفتنة عظيمة، وكان الهدف المقصود من ذلك هو إيقاف الناس على جوهر الدين ومغزاه. ولو كان رأي المعترضين القائل بأن تحويل القبلة كان بهدف إرضاء أهل مكة لقال تعالى: إننا نأمركم بتحويل القبلة ليرضى الناس عنكم ويميلوا إلى الإسلام أكثر، ولكن الله تعالى يقول إن الناس وسوف يعترضون عليكم بتزول هذا الأمر، وسيسبب عثارًا لهم.

بالفعل كان الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس في مكة ابتلاء ثقيلا على المسلمين من أهل مكة.. لأن هؤلاء كانوا يرون منذ القرون أن بيت الله معبد مقدس، و لم يكن في قلوبهم تعظيم لبيت المقدس إزاء الكعبة. ولما كان لليهود نفوذ عظيم في المدينة..كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ابتلاء شديدا لليهود والنصارى الذين دخلوا في الإسلام..لأن بيت المقدس كان مقاما مقدسا لديهم. والثابت من التاريخ أن عديدا من الناس وقعوا في الابتلاء وارتدوا بسبب هذا الأمر.

فلم يكن هذا التغيير لإرضاء أحد، بل كان فيه اختيار وامتحان لإيمان الناس. ولو كان الغرض إرضاء الناس لكان الطريق الأسلم لذلك أن يأمر الله النبي بالتوجه إلى الكعبة المشرفة من بادئ الأمر وهو في مكة ليرضى عنه أهل مكة، وبالتوجه إلى بيت المقدس كقبلة عندما كان في المدينة ليرضى عنه أهلها من اليهود. ولكن الأمر جرى على العكس من ذلك تماما. ففي مكة توجه إلى بيت المقدس، أما في المدينة فبعد مدة وجيزة توجه إلى الكعبة المشرفة. فكان هذا التغيير ابتلاء شديدا لأهل

هاتين المدينتين حتى ارتد عدد منهم (التفسير الكبير للرازي، تفسير جامع البيان، تحت هذه الآية).

وإلى ذلك يشير قول الله تعالى (وإن كانت لكبيرة) أي أن حادث تحويل القبلة ثقيل الوقع على الناس إلا الذين هداهم الله.. لأن الإنسان إذا كان على صلة عميقة بشيء.. لا يستطيع تركه بسهولة، اللهم إلا إذا كان قد تداركته هداية الله وكان عازما على طاعة الله في كل حال، وعندئذ لن يكون الأمر صعبا، ولن يتعثر في أي ابتلاء. منذا الذي يرفض وجود الشمس والقمر بعد رؤيتهما؟ نعم يمكن أن تنشأ في النفوس أسئلة منطقية عما يؤمنون به، ولكن الذين متعهم الله بنعمة الإيمان واليقين فلا يسبب لهم أي ابتلاء نكسة.

أما قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) فمعناه: مما لا شك فيه أن هذا كان ابتلاء شديدا صار حجر عثرة لبعض الناس، ولكن الله تعالى لم يكن ليحرمكم من الوعود والبركات المنوطة بأهل هذه القبلة.. ما دمتم قد آمنتم بهذا الرسول إيمانا صادقا. ولا تعني هذه الفقرة أن الله لن يضيع إيمان أولئك الذين توفوا قبل حادث تحويل القبلة، ولن ينقص من نعمهم ودراجاتهم الأخروية، كما كتب بعض المفسرين..وإنما معناها الحقيقي أنه لو لم يُعين الكعبة بيت الله قبلة لم تتضح للعالم عظمة نبأ إبراهيم، وما كان الله تعالى ليترككم بدون أن ينشئ صلة أبدية بينكم وبين الكعبة ما دمتم قد صدقتم بما هو مصداق للدعاء الإبراهيمي.

وقوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) يشير أيضا إلى أن الابتلاء لا يراد به إضاعة الإيمان، فإنما يأتي الابتلاء لإبراز إيمان الصادقين وكشف زيف الكاذبين في إيمانهم، ولتظهر به الحكم وراء أوامر الله تعالى، فيزداد العلم ويترقى..كما حصل عند تحويل القبلة. فارتقى المؤمنون علما وازدادوا عددا. ومن ناحية ظهر على الناس قوةُ وعظمة إيمانهم، ومن ناحية أخرى أدركوا بأنفسهم الحكمة من الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس أولا وإلى بيت الله ثانيا.

عندما قال الله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ...) كان من الممكن أن تحوم هناك شبهة أن الابتلاءات تنطوي على نوع من الظلم الذي يضيع الإيمان، ولدحض هذه الشبهة قال الله إن الابتلاءات لا تضيع إيمان المؤمنين، وإنما يضيع بها الزائفين فيه..وإلا لا يمكن أبدا أن يكون أحد مؤمنا صادقا ومع ذلك يتعثر. إنما فقط من لا يكون إيمانه صحيحا.

ويثير المستشرق (ويري) بهذه المناسبة اعتراضا ويقول: عندما وقع الناس في الابتلاء وتعثروا قال محمد إن هذا كان اختيارا (تفسير القرآن لويري تحت هذه الآية). الحقيقة الواقعة أن هذه الآيات نزلت قبل نزول الأمر بتحويل القبلة، وما دام الأمر بتحويل القبلة لم ينزل بعد فكيف يحدث الابتلاء؟ وإلى ذلك تشير عبارة (سيقول السفهاء). فاعتراض (ويري) في الحقيقة نابع عن تعصبه لا غير.

ونعرف من هذه الآية أيضا أنه ليس في القرآن أي حكم منسوخ، لأن الله تعالى يعلن بكل جلاء ووضوح (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) ويتبين من كلمة "جعلنا"بوضوح أنه كان هناك أمر خاص نزل لتوجيه الرسول ﷺ إلى بيت المقدس في صلاته، ولم يكن يتجه إليه بمحض اجتهاده وموافقا أهل الكاب في التوجه إلى بيت المقدس حين الصلاة. فإذا كانت بعض الأحكام القرآنية تنسخ كما يقول المفسرون..لوجب أن توجد في القرآن تلك الآية التي أمرت الرسول بالاتجاه إلى بيت المقدس.. والذي يشير إليه (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها). ولكن ليس هناك آية كهذه في القرآن. فلا بد إذن من التسليم بأنه لو كان هناك جزء من القرآن لينسخ فما كان هذا الجزء ليوضع في القرآن. ولكن الحقيقة الأصلية هي أنه لم يكن هناك شيء من القرآن ينسخ أبدا. وما كان سينسخ لم يكن ينزل في الوحي القرآني. كانت بيت المقدس قبلةً مؤقتة، وكانت الكعبة المشرّفة لتكون القبلة الدائمة..لذلك نزل الأمر بالاتجاه إلى بيت المقدس في وحي غير قرآني ونسخ فيما بعد. ويتبين من ذلك بجلاء أن جميع الأوامر والأحكام التي كانت ستنسخ لم تنزل في القرآن الكريم، ولو كانت هذه الأحكام موجودة في البداية في القرآن ثم

نُسخت لكان من الضروري أن تكون موجودة في القرآن بشكلها الأصلي في موضع منه.. ولكن عدم وجودها في القرآن يدل على أن الوحي المقرّر نسخه كان ينزل خارج القرآن الكريم..كما هو الحال بالنسبة للأمر بالاتجاه إلى بيت المقدس. فهذا الأمر ليس موجودا في القرآن الكريم في أي مكان.. ومع ذلك فإن نسخ هذا الأمر يدل على أن الرسول ﷺ قد أوحي إليه وحي في هذا الشأن، ولكن الله تعالى كان يعرف أن هذا الأمر سوف يُنسخ، لذلك لم يضمه إلى الوحي القرآني. إذن فكان النبي ﷺ يتلقّى نوعين من الوحي: الوحي القرآني والوحي غير القرآني. الوحي القرآني كان أسمى من أن يأتي عليه النسخ، ولكن الوحي غير القرآني كان يمكن أن يُنسخ كما هو الحال في الأمر بالاتجاه إلى بيت المقدس.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٥)

شرح الكلمات:

فلنوَلِّيَنَّك: ولاّه الأمر: جعله واليا عليه.(الأقرب) ولَّيتُ وجهي كذا: أقبلت به إليه (المفردات).

التفسير: لقد ذكر بعض المفسرين عن هذه الآية روايات تقول إن الرسول ﷺ كان يتجه في الصلاة إلى بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر نزول الأمر بتحويل القبلة (تفسير ابن كثير).

متى جاء النهي عن التطلع هنا وهناك في الصلاة؟ هذا مبحث على حدة. ولكن كون النبي ﷺ ينظر إلى السماء لهذا الغرض فهو مما لا يقبله العقل السليم ولو للحظة واحدة. لو كان من عادة النبي في الأمور الأخرى أيضًا أن يرفع رأسه إلى السماء منتظرًا الأمر الإلهي فيها.. أمكن عندئذ القول إنه كان ينظر إلى السماء في

صلاته لهذا الشأن. ولكن لا يجوز في صورة من الصور أن يُقبَل أمر يتعارض مع سُنة النبي ﷺ وعمله في أحوال عادية بحجة أن عبارة (في السماء) وردت في القرآن الكريم. الحقيقة أن هذا أسلوب في التعبير أدى جهلهم به إلى قول إن النبي ﷺ كان يحدق بنظره إلى السماء في شأن تحويل القبلة منتظرا الأمر الإلهي. في لغتنا أيضا يقولون: إن نظري إلى أمر كذا، أو يقولون إن وجهي قد تحول إلى الأمر الفلاني ...ولا يعني ذلك أننا فعلا ننظر إلى جهة معينة بعيون مفتوحة. كذلك الأمر في قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء)، فإن معناه: إننا نرى أن فكرك يتجه مرة بعد أخرى إلى السماء. والمراد أن قلبك لا ينفك يتمنى أن يترل الأمر من السماء في هذا الشأن.

ولو أخذنا الكلمات بمعناها الظاهر لم يستطع المفسرون أن يطبقوا هذا المعنى لأنه سيكون حينئذ: إننا نرى تقلب وجهك في السماء.. وتقلب الوجه في السماء غير ممكن. لأن الرسول موجود على الأرض. الحق أن "في" هنا بمعنى "إلى"، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم) (إبراهيم: ١٠)..وليس المراد هنا أنهم وضعوا أيديهم في أفواههم وإنما أرجعوها إلى أفواههم. ونفس الحال في قوله (تقلب وجهك في السماء) فليس المراد أن وجهه كان يتقلب في جو السماء هنا وهناك، وإنما المراد أن فكره كان يتجه إلى السماء دائما، وإلا فإن رفع الوجه إلى السماء مخالف لشأن ووقار النبي ﷺ.

والمعنى عندي: أننا نرى اتجاه فكرك مرة بعد أخرى إلى السماء، وهذا كما يقال: (إن نظرتي مصوبة إلى ناحية كذا).. أي أننا ننتظر الفوز والنصر من تلك الناحية. كان النبي ﷺ مأمورًا بالاتجاه إلى بيت المقدس، إلا أنه قد أدرك بناء على ما أظهر الله من الأنباء السابقة أن سيكون هناك أمر بالاتجاه إلى الكعبة وأن هذا التوجه سيكون أول خطوة إلى الرقي، لأن هذا الأمر جُعل علامة زمن ازدهار الإسلام، ومن ثم كان النبي يتجه إلى ربه منتظرا نزول الأمر بالتوجه إلى الكعبة.

وقد يكون حرف "في" بمعناه الأصلي.. والمراد من السماء هو أحكام السماء. فالمعنى أنك كنت تفكر مرة بعد أخرى في الأحكام السماوية، وكنت مضطربا في انتظار نزول الوحي الإلهي. يقولون في العربية: تكلمت معك في فلان.. أي تحدث معك في أمره. فالمراد من قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء) إننا نرى أن فكرك يتجه مرة بعد أخرى إلى الأحكام السماوية. أي كان النبي ﷺ ينتظر أن ينزل الأمر الإلهي ليعيّن الكعبة المشرفة قبلة المستقبل.

قوله تعالى (فلنولينك قبلة ترضاها) يعني سوف نحولك إلى قبلة ترضاها. وتبين هذه الآية بكل جلاء أن قوله (سيقول السفهاء) يحمل المعنى الذي ذهبت إليه.. لأنه لو كان هناك أمر نزل من قبل عن القبلة فلماذا قال تعالى الآن (فلنولينك قبلة ترضاها)؟

يفسر البعض قوله هذا بأننا سوف نجعلك واليا على هذه القبلة (الكشاف). ولكن لو كان المراد ذلك ما قال تعالى (قبلة ترضاها) بل قال بلدا أو كعبة أو بيتا ترضاه..لأن القبلة هنا بمعنى الجهة، ولا يكون أحد واليا على الجهة.. بل يكون واليا على بلد أو مدينة أو مكان. فلا يصح هذا المعنى.

وقد فسر العلامة ابن حيان قول الله تعالى (فلنولينك قبلة ترضاها) أي لنمَكّننّك من ذلك (البحر المحيط)..وهذا يبين أن الأمر بتحويل القبلة لم يكن قد نزل بعد، وإلا لم يقل الله: سوف نمكنك من ذلك.

كان قول الله تعالى (فلنولينك قبلة ترضاها) وعدا بجعل الكعبة قبلة، وأما قوله (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام) ففيه قد صدر الأمر بالاتجاه إلى الكعبة المشرفة لأول مرة، كما بين في قوله تعالى (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) أن هذا الأمر ليس خاصا بالمدينة وحدها.. فلا تظنوا أن الله تعالى أمر بذلك في المدينة فقط، لأنه لا يمكن لكم هناك الجمع بين الكعبة وبيت المقدس في اتجاه واحد. كلا، وإنما الأمر الآن هو أن تتوجهوا إلى الكعبة أينما كنتم، ولا تفكروا في الاتجاه إلى بيت المقدس.

يتبين من هذه الآيات أن نظر النبي ﷺ في الأمور الروحانية كان ثاقبا لدرجة أنه على الرغم من وجود الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس.. إلا أنه كان على يقين كامل –بناء على فراسته الروحانية – بأن الأمر بالتوجه إلى الكعبة المشرفة نازل لا محالة في يوم من الأيام. ولكنه –من ناحية ثانية –كان شديد الاحترام للأمر الإلهي حتى أنه لم يدعُ الله قط ليحول القبلة إلى الكعبة، وإنما صوّب نظره إلى السماء منتظرا الأمر الإلهي. وفي آخر المطاف، وبفضل توجهه الروحاني هذا.. أنزل الله الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس.

قال الله أولا (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام) ثم قال (حيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) واستخدم صيغة المفرد في الجملة الأولى، وصيغة الجمع في الجملة الثانية.. ذلك لأن الخطاب في الفقرة الأولى موجه إلى الرسول ﷺ، أما في الثانية فإلى جميع الأئمة والتابعين لهم في الصلاة في كافة البلاد والأمصار. لا شك أن الرسول ﷺ عندما كان يسافر خارج المدينة كان يتجه إلى بيت الله حيثما كان، ولكن إقامته في معظم الأحيان كانت في المدينة، وكانت في خارجها مؤقتة. أما الآخرون فكانت إقامتهم في المدينة مؤقتة وفي خارجها دائمة..لذلك خاطب الله في الفقرة الأولى النبيَّ وحده، ولما كان الذين يصلون وراءه يتجهون إلى حيث يتجه النبي في صلاته فلم يذكرهم على حدة، واعتبر صلاة النبي شاملة لصلاتهم هم أيضا.

أرى أنه يمكن لنا أن نستدل من هذه الآية بصورة قطعية أن الله تعالى قد أمر في الإسلام بالصلاة مع الجماعة واعتبرها أمرًا ضروريًا جدًا، لأن الله قال: فول وجهك شطر المسجد الحرام، و لم يقل: فولوا وجوهكم، ذلك أن سائر المسلمين سينضمون إلى النبي في الصلاة مقتدين به، إلا المنافقين الذين لا يكونون معه بقلوبهم، ويتخلفون عنه في أعمالهم، والذين قال الرسول ﷺ عنهم إنه يود لو أحرق بيوت الذين لا يحضرون صلاتي العشاء والفجر (مسلم، المساجد).

فصلاة الجماعة أمر غاية في الأهمية في الإسلام، وكان النبي ﷺ يؤكد على ذلك لدرجة أنه (أتى النبي رجل أعمى فقال يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى

المسجد. فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته، فرخص له. فلما ولى دعاه فقال له: تسمع النداء بالصلاة؟ فقال: نعم. فقال: فأجب) (المرجع السابق). ولكن الذين لا يحضرون إلى الصلاة في المسجد هذه الأيام رغم سماع النداء..أيُّ الأحجار تقف في طريقهم حتى يبقوا في بيوتهم؟ وأي عمى أصاب عيونهم حتى لا يحضروا للصلاة في المساجد؟ إن الرسول ﷺ لم يسمح لهذا المكفوف الذي كان يتعثر وتسقطه الأحجار بأن يصلي في البيت..ولكن الناس في هذه الأيام يتركون صلاة الجماعة في المسجد لأعذار واهية، وهكذا يثبتون بعلمهم أنهم مصابون بعمى روحاني!

وبقوله تعالى (فول وجهك شطر المسجد الحرام) أشار الله تعالى أنه فيما بتعلق بالإمامة فيكفي إصدار الأمر إلى شخص واحد.. لأن المسلمين جميعا سوف يصلون معه ووراءه، وهكذا سوف يشتركون في صلاته جميعا.

وقوله تعالى (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم).. أي أن أهل الكتاب يدركون أن الأمر بتحويل القبلة جاء من الله بحسب الأنباء الموجودة في كتبهم. ولكن لا يعني ذلك أن جميع أهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك..وإلا لماذا لم يؤمنوا بالرسول ﷺ؟ فعدم إيمانهم يدل على أن هؤلاء لم يكونوا يعترفون بصدقه في قلوبهم، و لم يكونوا يتصورونه مصداقًا للأنباء التي في كتبهم السابقة. فالمراد من (الذين أوتوا الكتاب) هم فقط علماء اليهود وزعماؤهم الذين كانوا على معرفة تامة بكتبهم، كانوا مطلعين على أنباء من أنبياء بني إسرائيل، وكانوا يعرفون أن الشريعة سوف تتغير، وأن القبلة سوف تتحول أيضا. ولما كان القوم تابعين لزعمائهم..لذلك إذا أدرك الزعماء فكأنهم هم أيضا أدركوا وعرفوا هذا الأمر.

ومما لا شك فيه أننا لا نستطيع من التوراة –بسبب ما تعرضت له من تحريف على أيدي أهلها – أن نجد أنباء واضحة فيما يتعلق بإسماعيل ومكة المكرمة، ولكن مع ذلك نجد آثارًا لها باليقين. وأكبر نبأ في هذا الصدد ما ورد في سفر التثنية: "هذه هي تلك البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء

الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى مع عشرة آلاف قدوسي، وعن يمينه نار شريعة لهم" (تثنية ٣٣:١-٣)[٨].

ولما كان الله يعلم أن هذا النبأ سوف يتنازع فيه المسلمون وأهل الكتاب فإنه منذ البداية وضع فيه كلمات لا يمكن أن يطبقها المسيحيون على أنفسهم.

إن أكثر وأشد ما تركز عليه المسيحية هو أن الشريعة لعنة (رسالة غلاطية ٣:١٣)، ولكن الله تعالى جعل أعظم نبأ هنا أن هذا المبعوث سوف يحمل لهم شريعة نارية. فالأمة التي تعتبر الشريعة لعنة لا يحق لها أن تحاول تطبيق هذا النبأ على نفسها.

والخبر الثاني في هذه النبوءة أن هذا الموعود سوف يأتي ومعه عشرة آلاف من القدوسيين؛ ولكن المسيح بن مريم لم يحظ بعشرة من القدوسيين دعك من عشرة آلاف. فقد كان له اثنا عشر حواريا، أوقعه أحدهم – كما تقول أناجيلهم – في قبضة العدو، أما الآخرون فقد خذلوا المسيح وفرّوا عنه عندما جاء العدو ليمسك به. وكان هناك حواري واحد فقط سل سيفه وحمل على العدو فقطع أذنه

(متى ٢٦:٤٨-٥١)..ولكن هذا كان نتيجة حماس مؤقت..وإلا فإن الحالة الإيمانية للحواريين تتجلى

فيما حدث فيما بعد. فعندما أخذ عمال الحكومة المسيح وذهبوا به إلى رئيس الكهنة..وكان بطرس موجودا خارج الدار، فرأته جارية فقالت له: وأنت كنت مع يسوع الجليلي. فأنكر أمام الجميع، وقال: لست أدري ما تقولين. ثم خرج إلى الدهليز فرأته جارية أخرى فقالت: وهذا كان مع يسوع الناصري. فأنكر وأقسم: إني لست أعرف هذا الرجل. وبعد قليل جاءه بعض الواقفين هناك وقالوا: حقا

---

[٨] نسخة أردية. الناشر **British and Foreign Bible Society** لاهور،الهند، الطبعة السابعة ١٩٠٨،وكذلك في طبعة ١٩٢٢–راجع صفحات مصورة من النسخة الأردية ولإنجليزية في آخر التفسير..

أنت منهم فإن لُغتك تُظهرك. فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إني لا أعرف الرجل (متى٢٦:٦٩-٧٥).

إذن لم يكن للمسيح حتى عشرة قدوسيين، ولكن سيدنا محمدا ﷺ فيشهد عنه التاريخ أنه عندما فتح مكة كان في صحبته جيش من عشرة آلاف من القدوسيين دخل بهم مكة في كل جاه وجلال، وفتح قلوب أهلها ببرّه وعفوه وحسن معاملته، فودّعوا الكفر والشرك، وانضموا إلى صفوف غلمانه (السيرة الحلبية، ج٣ فتح مكة).

والخبر الثالث في هذه النبوءة هو أن شريعة جديدة سوف تظهر على جبال فاران. والمراد من جبال فاران هو جبال مكة..لأن العرب يطلقون اسم "برية فاران " على ما حول مكة من وديان. ومعنى "فاران "في الحقيقة "اثنان من الفارين". وقد أطلق هذا الاسم على هذا المكان بسبب السيدة هاجر وإسماعيل عليهما السلام اللذين سكنا هناك –كما ذكرت التوراة –بعد أن تعرضا لمضايقة من السيدة سارة.

ومما لا شك فيه أن فاران ورد عن عدة أماكن في التوراة (تكوين ١٤و٢١،عدد ١٠و١٢و١٣؛ الملوك الأول ١١؛ صموئيل الأول ٢٥، حبقوق ٣).

فأولا-ما دام الاسم قد ورد عن أماكن مختلفة، فمن الضروري تعيين هذا المكان على ضوء الأحداث الواردة في النبوءة، وليس هناك طريق ثان لتعيينه، فإذا لم يكن المراد من جبال فاران ما حول مكة..فالسؤال المطروح: من هذا الذي جاء بعشرة آلاف من القدوسيين، وكان في يده اليمنى شريعة نارية؟ لو نظرنا إلى هذه الأحداث لتأكد لنا أن الرسول ﷺ هو الإنسان الوحيد الذي جاء بشريعة نارية، والذي دخل مكة فاتحا مع عشرة آلاف من القدوسيين، والذي فضّل اليمين على اليسار في أعماله كلها، أما النصارى فيؤكدون على السير جهة اليسار. فالمراد من (فاران) هو فاران الذي ظهر فيه رسول الإسلام محمد ﷺ، وليس أي فاران آخر.

ثانيا- إن ورود اسم فاران لعدة أماكن في التوراة يؤدي بنا إلى الشك بأن بني إسرائيل أطلقوا اسم فاران على عدة أماكن للتشكيك في الأنباء المتعلقة بإسماعيل (عليه السلام)..كما فعلوا عند قرب بعثة النبي ﷺ.. فعندما سمع اليهود من علمائهم أن نبيا سوف يُبعث في الجزيرة العربية واسمه محمد بدءوا يسمون أولادهم باسم محمد حتى يكون أحدهم مصداقًا لهذا النبأ(طبقات ابن سعد، ج١،ذكر من تسمى في الجاهلية بمحمد، وأسد الغابة، ذكر محمد بن أحيحة). من الممكن أن بني إسرائيل عندما أنبأ موسى عن "فاران " أخذوا يطلقون الاسم على أماكن مختلفة حتى يظهر الموعود في أحد منها، ولكن محاولتهم لم تُجْدِهم شيئا، بل بعث الله الرسول الموعود بحسب الأنباء في مكة..التي كان العرب دائما يطلقون على ما حولها "برية فاران ".

ثالثا- الجبل الذي أطلق عليه اليهود اسم فاران يقع أيضا في الجزيرة العربية، مما يؤكد أنهم لم يستطيعوا جرّ فاران خارج الجزيرة العربية.

رابعا- هناك دليل في التوراة نفسها على أن فاران هي جبال مكة، فقد ورد فيها عن إسماعيل (عليه السلام) أنه (سكن في برية فاران)، وأخذت له أمهُ زوجةً من أرض مصر(تكوين٢١: ٢١).

فمكة هي البلدة الوحيدة الذي يقول أهلها إن إسماعيل كان بانيها. وليست هذه رواية واحدة، بل هناك قبائل وقبائل تنسب نفسها إلى إسماعيل، وجميع آثاره وجدت هناك حيث كانت تماثيل إسماعيل موجودة في الكعبة حتى زمن الفتح. فلا بد من التسليم بما يدعي به أهل مكة، وإلا فعلى اليهود والنصارى أن يقدموا تلك المدينة التي أسسها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.. والتي ينسب أهلها أنفسهم إلى إسماعيل. فإذا لم يستطيعوا ذلك فلا بد لهم من الإقرار بأن مكة هي فاران التي وردت عنها هذه النبوءة. فإقامة إسماعيل هناك ثابتة، ويقول أهل مكة إنه أقام هناك، وفي هذا المكان توجد آثاره.. ولكن المكان الذي يدعيه اليهود والنصارى أنه

"فاران" فلا يقول أهله إن إسماعيل أقام هناك، مع أن الناس عموما ينسبون مثل هذه الأمور بدون حجة للتفاخر والاعتزاز.

خامسا- العين التي أجراها الله لأجل إسماعيل توجد في مكة أيضا، وهـذا ثبـوت يقيني وقطعي بأن إسماعيل وهاجر جاءا إلى مكة وأقاما هناك.

ثم هناك نبأ في الإنجيل عن تحويل القبلة يقول: إن امرأة سامرية استقى منها المسيح قالت له: آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه. فقال لها يسوع: يا امرأة، صدقيني، إنه تأتي ساعة لا في هـذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للأب (يوحنا ٤: ٢٠-٢١).

في هذا النبأ يعلن المسيح في كلمات صريحة أنه لن يبقى هذا الجبل ولا أورشليم قبلة للعبادة، بل يعين الله قبلة أخرى بدلا منهما.

وليكن واضحا أن هذه العبارة لا تعني أن اليهود كانوا جميعا يذهبون للعبـادة إلى أورشليم، أو أن السامريين كانوا يتعبدون عند هذا الجبل، ولكن المراد أنهم كـانوا يتخذون أورشليم والجبل قبلة يتوجهون إليهما في عبادتهم. وقول المسيح أنهم لـن يتعبدوا عند الجبل أو في أورشليم يعني أنهم لن يتجهوا إلى هذين المكانين في عبادتهم كقبلة لهم.

ولنتذكر أنه كما أن الإنجيل عبّر عن التوجه في العبادة إلى الجبل بقوله: (سجدوا في هذا الجبل)،كذلك استخدم القرآن الكريم نفي الأسلوب في قوله (قد نرى تقلـب وجهك في السماء).. ولا يعني ذلك أن الرسول ﷺ كان يـدير وجهـه في جـو السماء، بل يعني أن فكره كان يتجه دائما إلى السماء.

وهناك عدة أنباء أخرى علاوة على هذين النبأين تدل على ازدهار الكعبة، ولكـن نكتفي بهذين كمثال لهذا الغرض. ولنفترض أن اليهود لم يكونوا يدركون المراد من هذه الأنباء قبل وقوعها.. ولكن لم يكن من الصعب عليهم بعد تحققها أن يتفهموا

أن هذا الأمر بتحويل القبلة كان بحسب نبأ قديم، والاعتراض عليه بمثابة الاعتراض على كتبهم هم.

ويمكن أن يكون قوله تعالى (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) عن المسلمين أنفسهم. فالمعنى أن الذين أوتوا كتابا كاملا مثل القرآن الكريم يدركون إدراكا كاملا أن الأمر بتحويل القبلة كان من الله تعالى، ليس لأنهم كانوا يعرفون سلفا بأن الكعبة ستكون قبلة لهم، وإنما لأنهم يعرفون أن محمدًا نبي ورسول صادق، وأن كلام الله تعالى ينزل عليه، ومن المستحيل –والحال هذه –ألا يصدقوا بأن أوامره من الله وألاّ يطيعوه طاعة كاملة بكل معناها.

أما قوله تعالى (وما الله بغافل عما يعملون) فيخبر الله فيه أننا مطلعون على ما يفعلون. إن علماءهم الكبار يعرفون في قرارة نفوسهم أن محمدا رسول صادق، ولكنهم يرفضونه عنادا وكبرا..وإلا فإنهم يعرفون تماما أن هناك أنباء في كتبهم عن جعل الكعبة المشرفة قبلة، وعن بعث نبي في بني إسماعيل..ومع ذلك فإنهم غير مستعدين لتصديق هذا النبي عنادا وكبرا.

كان حادث تحويل القبلة في الشهر السادس أو السابع عشر بعد الهجرة، وقد ورد عن البراء بن عازب أن الرسول (ص) صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبل البيت، وأنه صلى أوّل صلاة صلاها –صلاة العصر..وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ﷺ قِبل مكة. فداروا كما هم قبل البيت (البخاري، كتاب التفسير، وابن كثير، آية سيقول السفهاء).

وفي رواية عن أبي سعيد بن المعلى أن الصلاة التي حدث فيها تحويل القبلة كانت صلاة الظهر، وقال: كنت أنا وصاحبي أول من صلى إلى الكعبة (ابن كثير). وذكر غير واحد من المفسرين أن تحويل القبلة نزل على رسول الله ﷺ وقد صلى ركعتين من الظهر في مسجد بني سلمة، فسُمّي مسجد القبلتين (المرجع السابق).

يتبين مما سبق من الروايات أن بعضها تقول إن الأمر بتحويل القبلة نزل وقت صلاة العصر، والأخرى تقول وقت صلاة الظهر، ولكن يبدو أن الرواية القائلة بصلاة الظهر هي الأصح.. لأنه من الممكن أن الأمر نزل وقت الظهر، ولكن الراوي الثاني اشترك في صلاة العصر بعد أن تحولت القبلة، ولما رأى النبي متجها إلى الكعبة ظن أن الأمر بتحويل القبلة نزل وقت العصر، و لم يدر بخلده صلاة الظهر..لذلك نرجح الرواية القائلة بتحويل القبلة في صلاة الظهر.

ويؤكد هذا حديثُ نويلة بنت مسلم بأن الخبر جاءهم بذلك وهم في صلاة الظهر، قالت: فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال (المرجع السابق). إن من أحكام الصلاة في الإسلام أن يكون الرجال أمام النساء، فعندما نزل الأمر بتحويل القبلة اضطر الرجال والنساء إلى تغيير وضع الصفوف وتبادلوا الأماكن.

وقد ورد في هذا الباب أيضا أن أهل (قباء) لم يصلهم الخبر إلا وقت صلاة الفجر في اليوم الثاني. (البخاري، كتاب التفسير). ومن هذا نستدل أنه لو وصل الخبر من المدينة إلى أهل قباء بعد يوم –وهي على مسافة ميل واحد –فلا بد أن البراء بن عازب قد أخطأ في تعيين الوقت الذي تحولت فيه القبلة وقال إنه وقت صلاة العصر. إنه ظن أن تحويل القبلة تم وقتها لأنه اشترك في هذه الصلاة.. و لم يسأل أحدا متى نزل الأمر بتحويل القبلة، وإنما حسب أن صلاة العصر هي الصلاة الأولى التي تم فيها تحويل القبلة.

ولا تذكر هذه الروايات أيضا أن الرسول بعد هجرته إلى المدينة بدأ يصلي متجها إلى بيت المقدس بدلا من الكعبة، ولو صح ذلك لوجدنا رواية من أحد ممن جاءوا إلى المدينة قبل هجرة النبي..أنه ﷺ كان قبل ذلك يتجه إلى بيت الله الحرام في مكة.

الحق أن النبي كان يتجه إلى بيت المقدس وهو في مكة أيضا، و لم يزل متجها في صلاته إلى بيت المقدس بعد هجرته إلى المدينة طيلة ستة عشر أو سبعة عشر شهرا. فباطل تماما اعتراض القسيس ويري بأن الرسول ﷺ بدأ يتجه في صلاته إلى بيت

المقدس عندما جاء إلى المدينة إرضاء لليهود، وعندما لم ينل رضاهم اتجه مرة أخرى إلى مكة.

هناك رواية واحدة فقط تقول أن النبي ﷺ بعدما جاء إلى المدينة اتجه إلى بيت المقدس إرضاء لليهود – والعياذ بالله. ولكن كلمات الرواية تدل على أنها من اختلاق منافق أو يهودي سيئ الطوية..وتقول: (أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك أن محمدا كان يستقبل صخرة بيت المقدس وهي قبلة اليهود، واستقبلها سبعة عشر شهرا ليؤمنوا به ويتبعوه ويدعوا بذلك الأميين من العرب؛ فقال الله عز وجل (لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله).

فعبارة أن محمدا كان يستقبل صخرة بيت المقدس تدل على أنها من اختراع منافق فتّان أو يهودي خبيث.. عندما رأى النبي ﷺ قد اتجه إلى الكعبة المشرفة في صلواته احترق حسدا وكمدا..ووضع هذه الرواية ونشرها بين المسلمين ليوهم أن النبي ﷺ صلى نحو بيت المقدس إرضاء لليهود، ولما فشلت هذه الحيلة رجع إلى الكعبة المشرفة. وذكر بعض المفسرين هذه الرواية الموضوعة – جهلا منهم وحمقا –في تفسيرهم وقالوا إن النبي ﷺ توجه إلى بيت المقدس لتأليف اليهود (جامع البيان للطبري، تحت تفسير هذه الآية).

ومن البراهين على أن هذه الرواية موضوعة أنها جاء فيها أن محمدا كان يستقبل..ولم تقل "رسول الله" مع أن المسلمين ما كانوا ينادون النبي ولا يذكرون اسمه، وإنما كانوا يذكرون مقامه الروحاني ويقولون "رسول الله ". أما أصحاب الأديان الأخرى فكانوا ينادونه بكنيته "أبي القاسم" بدلا من اسمه إجلالا واحتراما له حسب العادة العربية.. فقد ورد في الحديث أن يهوديا جاء إلى الرسول ﷺ ذات مرة في المدينة وبدأ يناقشه ويجادله ويكرر اسمه قائلا "ليس الأمر هكذا يا محمد..فكان النبي ﷺ يجيبه بدون أي ضيق، ولكن الصحابة كانوا في ضيق وغضب لوقاحته..حتى أن أحدهم لم يصبر على ذلك وقال لليهودي: لماذا تناديه باسمه؟ إذا كنت لا تستطيع أن تقول: يا رسول الله، فناده بكنيته "أبي القاسم" فقال اليهودي:

لا أنادي إلا بما سماه أبواه. فتبسم النبي ﷺ وقال لأصحابه: لقد صدق فقد سماني أبواي محمدا، فدعوه ينادني به ولا تغضبوا.

يبين هذا بجلاء أن الصحابة كانوا لا يذكرون اسم محمد.. وكانوا يضيقون بمن يناديه باسمه من غير المسلمين. فهؤلاء الذين كانوا لحبهم وغيرتهم على رسول الله لا يطيقون أن يناديه أحد باسمه..كيف يمكن أن يتصور عنهم أن يحدثوا عنه باسمه وليس مقرونا بصفته الروحانية. هذه الرواية "أن محمدا.."تدل بنفسها على أنها ليست من فم مسلم وإنما هي من قول اليهود لأنهم هم الذين قالوا: لقد توجّه محمد إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا، ولكنه الآن توجه إلى قبلة آبائه. و لم يفكر واضع هذه الرواية أن يتخير ألفاظا لا تكشف عن خداعه، فاخترع رواية شاء الله أن تكون كلماتها فاضحة لخداعه، وتبين أن الناطق بها منافق كذاب نسي- لشدة بغضه وعناده – أن الصحابة لا يستخدمون كلمة محمد وإنما يقولون (النبي، أو نبي الله، أو رسول الله ﷺ) قال كذا وكذا.

صحيح أن صاحب تفسير جامع البيان ذكر كلمة (النبي ﷺ) ولكن يبدو أن المسلمين هم الذين أضافوا هذه الكلمات عند نقل هذه الرواية. على أي حال، مهما كانت ألفاظ الرواية..فإن موضوع الرواية نفسه سيئ وخبيث لدرجة لا يقبلها إنسان سليم الفطرة ولن ينسبها إلى الرسول ﷺ.

كذلك ذكر البيهقي في كتاب "دلائل النبوة " رواية عن الزهري أنه صرفت القبلة نحو المسجد الحرام في رجب على رأس ستة عشر شهرا من مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وكان رسول الله ﷺ يقلب وجهه في السماء وهو يصلي نحو بيت المقدس، فأنزل الله عز وجل حين وجهه إلى البيت الحرام (سيقول السفهاء من الناس ... يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) وما بعدها من الآيات. فأنشأت اليهود تقول: قد اشتاق الرجل إلى بلده وبيت أبيه (ج٢، باب تحويل القبلة). وقد ذكر ابن كثير هذه العبارة (لقد اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه) (تفسير ابن كثير، تحت هذه الآية). وتؤكد هذه الرواية أيضا أن اتجاه النبي ﷺ والمسلمين من بيت المقدس

إلى الكعبة كان شديدا أو شاقا على اليهود، وكانوا يعترضون على المسلمين بشدة ويقولون: ماذا جرى لهم؟ ..مرة يصلون إلى القبلة، ومرة يصلون إلى قبلة أخرى. وقد دفعهم ولعهم بالطعن في المسلمين أن وضعوا هذه الرواية المذكورة آنفا.

وعلى أي حال، تبين هذه الرواية بوضوح أن قول الله (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِم) لم ينزل بعد الأمر بتحويل القبلة وبعد اعتراض اليهود، وإنما نزل قبله، فبعد نزول الأمر بتحويل القبلة بدأ اليهود يعترضون، وأيضا تزلزلت أقدام بعض ضعاف المسلمين وارتدوا. هذا الموضوع أذكره خلافا لما قالته التفاسير الأخرى عامة، ولكن رواية البيهقي تصدق أن قوله تعالى (سيقول السفهاء ...) لم ينزل ردا على اعتراضات أثاروها من قبل.. وإنما جاء دحضا لاعتراضات سوف يثيرونها، وقد أنبأ الله سلفا بوقوعها.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٦)

التفسير: يقول الله تعالى أنكم لو أريتم أهل الكتاب كل صنوف الآيات لم يتبعوا قبلتكم. وأي شك في هذا؟ إن التسليم بقبلة المسلمين يعني إقرارهم بأن سلسلة النبوة قد انقطعت عن بني إسحاق، وأن الدين اليهودي باطل، وأن الدين الإسلامي حق.. ولكن اليهود لم يكونوا مستعدين لذلك. إن فسوقهم وخضوعهم للأعراف الدينة والشعبية حال دون اتجاههم إلى هذه القبلة الجديدة. فظلوا مصرّين على الرفض.

وتبن هذه الآية أنه لا يمكن أبدا أن تؤمن أمة بكل أفرادها، بل لا بد أن يهلك بعضهم. ولما كان الله تعالى يريد أن يُعز النبي عزة غير عادية.. لذلك جعله في نضال مستمر لمدة ثلاث وعشرين سنة، وفي هذه الفترة أهلك الله الطائفة الخبيثة، ثم

وفق العرب للإيمان به. وباختصار، فإن سلسلة الاختلافات مستمرة منذ الأزل إلى الأبد. فالذي يخاف المعارضة شديد الحمق.

ثم يقول الله (وما أنت بتابع قبلتهم). لاحظوا هنا جمال الأسلوب القرآني. وكيف أنه صد على العدو سبيل الاعتراض. كان من الممكن أن تمضي الجملة على هذا النحو: "ولن تتبع قبلتهم". ولكن استخدام الاسم "تابع" هنا غيّر صورة الجملة. ذلك لأن الجزء الأول من الآية يبين أنهم لن يتبعوا قبلتك رغم كل آية تأتي بها لهم، ولو كانت العبارة بعدها "ولن تتبع قبلتهم"، لكان معنى ذلك أنك أيضا لن تتبع قبلتهم ولو جاءك هؤلاء بكل دليل وبرهان.. وهذا يعرِّض الرسول ﷺ للاعتراض. فجاء بالجملة الاسمية ليدفع عنه الاعتراض، وليبين أن هذا الرسول يرفض قبلتهم بناء على أدلة لديه من الله تعالى.

والسؤال الآن: لماذا قال الله تعالى (وما أنت بتابع قبلتهم).. مما قد يفهم منه موقف العناد؟ يجب أن نتذكر أن هذا ليس عنادا لأن الرسول توجه إلى بيت الله الحرام بأمر منه عز وجل، ولم يكن لدى النبي أي عناد تجاه اليهود. ولو كان الأمر كذلك لم يتوجه النبي إلى بيت المقدس في صلواته قبل الهجرة لسنوات ثم بعدها لمدة سبعة عشر شهرا. هذا الفعل منه يدل على أنه ﷺ لم يكن يعاند اليهود، ولكن فعل اليهود أثبت وأكد أنهم كانوا يعاندونه، لأنهم رغم اطلاعهم على نبوءات واضحة في كتبهم عن تغيير القبلة لم يقبلوا التسليم بها. فهناك دليلان واضحان يدحضان تهمة العناد عن الرسول ﷺ.

أولا- أنه توجه في صلواته لسنين إلى بيت المقدس.

ثانيا –أن توجه الرسول إلى بيت الله الحرام كان بأمر إلهي. أما رفض اليهود التوجه إلى هذا البيت فلم يكن بناء على إلهام إلهي، وإنما بدافع العناد. فشتان بين فعل الرسول ﷺ وبين فعل اليهود!

قوله تعالى (وما بعضهم بتابع قبلة بعض). هنا أتى الله بما يوضح عنادهم أكثر، فقال: إن هؤلاء لا يتبعون قبلة بعضهم البعض. الحقيقة أن قبلة اليهود مختلفة عن قبلة النصارى. قبلة اليهود هي أورشليم..كما هو واضح من سفر الملوك الأول (٨:٢٢-٣٠) ودانيال(٦:١٠). ولكن الفرق السامرية منهم كانت تتجه في عبادتها إلى جبل في أورشليم، كما هو واضح مما جاء في إنجيل يوحنا أن امرأة من السامريين كانت تحاور يسوع فقالت: آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه. قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للأب. (يوحنا٤: ٢٠-٢١). يتبين من ذلك أنه كان هناك على الأقل فرقتان من اليهود إلى زمن المسيح: فرقة تتجه في العبادة إلى جبل في أورشليم، وفرقة تتجه إلى أورشليم.

أما النصارى فكانوا في زمن الرسول ﷺ يتجهون عند العبادة إلى الشرق، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس. وقد ورد في الأحاديث أن وفدا من نصارى نجران جاء النبي ﷺ، ولما حانت عبادتهم أدوها في المسجد النبوي "فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم" (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني، فصل ١٠ الوفد ١٤).

والسبب في توجههم في الصلاة إلى الشرق –كما يقول القسيس أكبر مسيح الهندي – هو أن النجمة الدالة على ظهور الإله المسيح ظهرت في الشرق، وكذلك تمت ولادة وحياة وموت وقيامة الإله كلها في الأرض المقدسة، لذلك كان يجب التوجه إلى الشرق وإلى هذا البلد (سِلْك مَرْواريد، ج١ ص٤٥) [لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع يرجع إلى التفسير الكبير –سورة مريم – آية: واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا].

يقول الله تعالى: كيف يمكن لهؤلاء أن يقبلوا قولكم وهم متعصبون لدرجة أنهم يختلفون في قبلتهم مع أنهم ينتمون إلى كتاب واحد، وإذا كانوا يعاندون بعضهم البعض رغم أن شريعتهم واحدة، ويشوّهون وجه الدين..فكيف يمكن أن يميلوا إليكم.

قوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم). يعترض بعض الناس على هذه الجملة ويقولون: هل كان من الممكن للرسول ﷺ أن يتبع أهواءهم ويصبح ظالما؟

والجواب على ذلك أولا – يتبين من القرآن الكريم أنه يستخدم بعض الأحيان صيغة الخطاب الموجه إلى الرسول في الظاهر، ولكن المراد منه كل إنسان وليس الرسول، كقوله تعالى (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما) (الإسراء: ٢٤)..فالخطاب موجه للنبي في الظاهر مع أن أبويه الكريمين قد توفيا وهو صغير. وهذا يوضح أن الرسول ﷺ ليس مقصودا بهذا الخطاب وإنما هو موجه لكل إنسان. وهكذا الحال بالنسبة لآيتنا الحالية، فيقول الله تعالى: يا من تقرأ القرآن.. إذا اتبعت الأهواء الفاسدة لأعداء الإسلام فستصبح من الظالمين.. لأننا قد أنزلنا علما يقينيا عن طريق هذا الرسول، فإن لم تنتفع به واتبعت سبيل الآخرين لألحقت بنفسك ضررا بليغا. أما الرسول فقد قال الله عنه في هذه الآية نفسها وبكل صراحة (وما أنت بتابع قبلتهم)..فكيف يمكن أن يعارض ما قاله في الفقرة التالية..فيقول له: إذا اتبعت أهواءهم أصبحت من الظالمين؟ فليس المراد هنا الرسول ﷺ وإنما كل مسلم. وبالفعل ترك المسلمون اليوم القرآن الكريم واتبعوا العلوم الأخرى التي تتغير وتتبدل كل يوم، معرضين عن العلم اليقيني النازل في القرآن الكريم.

وثانيا – يُصدر القاضي أحيانا قراره ويمليه على كاتبه موجها حكمه إلى المجرم فيقول مثلا: "إنك تُعاقَب على هذه الجريمة بالسجن لمدة كذا ". فلا يقف كاتب المحكمة صارخا ويقول: لماذا تعاقبني بهذه العقوبة؟ كذلك يعلن الله عن قراره. وليس المراد منه إلا الذي يخالف القانون.

وثالثا –يمكن بعض الأحيان أن يخاطبَ صاحبُ القرار أحد أقاربه بينما يكون الكلام في الحقيقة موجها إلى الآخرين، وفي هذا تهديد وتحذير بأنه إذا فعل أحد أقاربه هذا لعاقبه، وليس المراد أن قربيه هذا سوف يفعل ذلك، وإنما المراد هو تشنيع الجريمة وتحذير الآخرين. وكذلك الحال هنا، فلا يمكن أن يفعل الرسول ذلك..بل

خوطب لتحذير الآخرين وتنبيههم إلى أن كل من يخالف هذا الأمر سوف يعاقب مهما كانت مكانته. مثلما فعل الرسول ﷺ عندما قال: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (البخاري، الحدود)، ولا يعني ذلك أن السيدة فاطمة – عليها السلام –يمكن أن تسرق، ولكن المراد هو أن يحذر الآخرين ويعرفوا أنه لن يفرق بين صغير وكبير في تطبيق الحدود.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٧)

التفسير: في هذه الآية يبين الله تعالى أن أهل الكتاب يعرفون صدق محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم. ومعرفة الابن دائما تتم بشهادة الأم. عندما يرى الزوج أن زوجته عفيفة صالحة فلا يقع في شك أو شبهة بشأن أولاد تلدهم، بل يراهم نسله بصورة شرعية. هذه الصورة ذاتها يقدمها الله تعالى ويقول إن الذين آتيناهم الكتاب يعرفون صدق محمد كما يعرفون أبناءهم. فكما أن الإنسان الذي يعرف عفة زوجته ويعتبر الأولاد الذين تحملهم وتضعهم أولادا له ولا يقع في شك أنهم أولاد لغيره... كذلك الحال لأولئك الذين رأوا صدق محمد وسداده، فأكبر دليل عندهم على صدق محمد هو وجوده هو. فعندما أوحى الله إلى النبي ﷺ (وأنذر عشيرتك الأقربين)، جمع الناس في مكة وقال لهم (أريتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ)قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد (البخاري، التفسير، سورة الشعراء). فمع أن هذا الأمر كان مستحيلا، لأن ما وراء هذا التلّ هو ميدان صغير لا يختفي فيه خمسون أو ستون شخصا، دعك من جيش جرار، ومع ذلك أجاب هؤلاء: إننا نصدقك في كل ما تقول لأننا لم نجرب عليك الكذب إلى اليوم، وكأنهم كانوا مستعدين لقبول المستحيل لو قاله محمد، ولكنهم مع ذلك رموه بالكذب والخداع ورجعوا.

إذن كان النبي ﷺ معروفا مشهورا بينهم بالأمانة والصدق لدرجة أن العدو كان يقول أن ليس هناك في مكة من هو أكثر منه صلاحا وأمانة.

فما دام الإنسان لا يشك في صحة نسب أولاده ويقبل شهادة الزوجة العفيفة على الرغم مما تقع فيه زوجته من أنواع الكذب عموما..فما باله لا يصدق شخصا لا يقول إلا الصدق وهو مبرأ من الكذب؟ يقول الله تعالى: عليكم أن تعاملوه على الأقل كما تعاملون أبناءكم. أما الزوجات فليس ثمة شاهدان على صدقهن، بينما يقف كل أهل مكة شهداء على صدق هذا الرسول ﷺ حتى أن أعداءه لا يستطيعون نكران صلاحه وأمانته. فكيف يصح إنكاره ورفضه.

وفي قوله تعالى (وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)يبين الله تعالى أن منهم من يخفون الحق عمدا، فهم يعرفون صلاح محمد وأمانته، ويعرفون جيدا أنه شخص لم يقترب من الكذب والخداع أبدا.. ومع ذلك يخفون الحق ويتعمدون تكذيبه ﷺ.

عندما ادعى رسول الله النبوة كان أبو بكر خارج مكة في سفر، وعندما رجع أبلغته إحدى إمائه: أن صاحبك قد جن ويقول قولا عجيبا..يقول إن ملائكة السماء تنزل عليه. فقام أبو بكر من فوره وجاء النبي في بيته وطرق الباب، فقابله النبي. فقال له: جئت أسألك في أمر. هل قلت إن ملائكة من السماء تنزل عليك وتحدثك؟ ومخافة أن يتعثر أبو بكر ويزل قدمه أراد النبي ﷺ أن يشرح له الأمر أولا، ولكن أبا بكر أصر وقال: لا أريد شرحا، حسبك أن تخبرني: هل قلت هذا؟ ومرة أخرى أراد النبي ﷺ أن يمهد له الأمر خشية أن يسأل أبو بكر عن شكل الملائكة وكيف تنزل، ولكن أبو بكر أصر على أن يعرف: هل صحيح ما يقال عنك؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فقال أبو بكر: إني أؤمن بك وأصدق كل ما تقول. ثم أضاف: يا رسول الله، إنني منعتك من بيان أدلة صدقك لأنني أردت أن يكون إيماني مبنيا على المشاهدة لا على الأدلة..لأنني إذ أعتبرك صالحا وصادقا فلا يبقى بعد ذلك حاجة إلى دليل. فالأمر الذي أراد أهل مكة إخفاءه أظهره سيدنا أبو بكر بعمله (رضي الله عنه).